كتاب (سر الفصاحة)

لابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)

المفترى عليه

دكتور

عبد المنعم السيد الشحات رزق

الأستاذ المساعد ورئيس قسم البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بدمياط الجديدة

عنوان البحث : كتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) المفترى عليه

كلمات مفتاحية : سر الفصاحة – ابن سنان – المفترى عليه – إقحام موضوعات– بلاغية – تكرار .

اسم الباحث :عبد المنعم السيد الشحات رزق

عنوان الباحث : كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط الجديدة جامعة الأزهر .

التوصيف الأكاديمي: أستاذ مساعد

الإيميل الجامعي: Dr_monem5@azhar.edu.eg

ملخص البحث بالعربي

هذه الصفحات القليلة هي قراءة لكتاب (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي)، وسأعرض لبعض الجوانب التي فُهمت خطأ عنه وعن كتابه، وقد سميت هذا البحث (كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي المفترى عليه).

إذن فالغرض الرئيس هو الكتاب وما دار حوله من نقد ظالم، لا يدل سوى على عدم دراية ومعرفة من حاول نقد هذا السفر العظيم، وعدم القراءة الجيدة لهذا الكتاب؛ فجعلت كثيرًا من الباحثين يتناولون هذا الكتاب بالنقد والهجوم عليه ، فلا أكون مغاليًا إذا قلت: إنه لم يظلم أحد من البلاغيين كما ظُلِم الأمير ابن سنان الخفاجي، صاحب السفر العظيم (سر الفصاحة) ، وسأزيد أكثر وأقول: إنه لم يؤلِّف أحد كتابًا التزم فيه صاحبه المنهجية والترتيب والنظام كما فعل العلامة (ابن سنان الخفاجي).

وأقول _أيضًا_: إنه لم يستفد أحد من الكتب المؤلَّفة في البلاغة قدر ما استفادوا من كتب (الجاحظ)، وكتاب (سر الفصاحة)، لابن سنان الخفاجي، وكتابي الشيخ عبد القاهر (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

ومع ذلك نجد كتب (الجاحظ) والشيخ (عبد القاهر) قد نالت من الشهرة والذيوع الكثير، وكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي لا يعرفه إلا قلة من الناس، هم أهل البلاغة، بل إن بعض البلاغيين لا يعلمون شيئًا عن الكتاب وعن جهد صاحبه فيه.

هو فقط أحد المؤلفات التي أُلفت في البلاغة، وانضم إلى غيره من كتب كثيرة توضع على أرفف المكتبات.

ولعل هذا ما جعل شيخنا، الأستاذ الدكتور/محمد رجب البيومي يتعجب من ذلك، حيث يقول في كتابه القيم: (تطور البحث البلاغي): " لا أدري، لماذا لم يشتهر (ابن سنان الخفاجي) شهرة (عبد القاهر الجرجاني) و(السكاكي)، ولئن جاز أن يقرن به (عبد القاهر) أو يبزه، فإنه أعظم من (السكاكي) دون جدال.

ملخص البحث بالإنجليزي

These few pages are a reading of the book (the mystery of eloquence) to (Ibn Sinan al-Khafaji), and I will show some aspects that I misunderstood about him and his book, has been named this research (book secret Alasahp Ibn Sinan Al-Khafaji.

Therefore, the main purpose of the book is the unjust criticism of the book. It only shows the lack of knowledge and knowledge of those who tried to criticize this great book, and the lack of good reading of this book. This led many researchers to criticize this book and criticize it.

I would not be exaggerating if I said: No one of the rhetorists was as unfair as the prince Ibn Sinan al-Khafaji, the great author of the book "The Secret of eloquence" was wronged.

I will add more and say: He has not authored a book in which the owner adhered to the methodology, arrangement and order as did the scholar (Ibn Sinan Al-Khafaji.

I also say _ no one has benefited from the books written in rhetoric as much as they have benefited from the books (Al-Jahiz), and the book (The Secret of eloquence), by Ibn Sinan Al-Khafaji, and my book Sheikh Abdul-Qaher (Evidence of Miracle) and (Secrets of Rhetoric.

Books (Al-Jaf) and Sheikh (Abdul-Qaher) have gained fame, and the book (The Secret of eloquence) by Ibn Sinan Al-Khafaji is known only to a few people, they are the people of rhetoric, no. in it.

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل لا مفر منه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، وعلى آله وصحابته ومن سار على نهجه القويم.

وبعد،

فلا أكون مغاليًا إذا قلت: إنه لم يظلم أحد من البلاغيين كما ظُلِم الأمير ابن سنان الخفاجي، صاحب السفر العظيم (سر الفصاحة).

وسأزيد أكثر وأقول: إنه لم يؤلِّف أحد كتابًا التزم فيه صاحبه المنهجية والترتيب والنظام كما فعل العلامة (ابن سنان الخفاجي).

وأقول _أيضًا_: إنه لم يستفد أحد من الكتب المؤلَّفة في البلاغة قدر ما استفادوا من كتب (الجاحظ)، وكتاب (سر الفصاحة)، لابن سنان الخفاجي، وكتابي الشيخ عبد القاهر (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

ومع ذلك نجد كتب (الجاحظ) والشيخ (عبد القاهر) قد نالت من الشهرة والذيوع الكثير، وكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي لا يعرفه إلا قلة من الناس، هم أهل البلاغة، بل إن بعض البلاغيين لا يعلمون شيئًا عن الكتاب وعن جهد صاحبه فيه.

هو فقط أحد المؤلفات التي أُلفت في البلاغة، وانضم إلى غيره من كتب كثيرة توضع على أرفف المكتبات.

ولعل هذا ما جعل شيخنا، الأستاذ الدكتور/محمد رجب البيومي يتعجب من ذلك، حيث يقول في كتابه القيم: (تطور البحث البلاغي) : " لا أدري ،

لماذا لم يشتهر (ابن سنان الخفاجي) شهرة (عبد القاهر الجرجاني) و(السكاكي)، ولئن جاز أن يقرن به (عبد القاهر) أو يبزه، فإنه أعظم من (السكاكي) دون جدال.

وهو كـ(ابن فارس) قد سبق إلى تدوين أصول بلاغية، ظلت تتردد حتى الآن في كتب البلاغة؛ لأن حديثه عن الفصاحة والبلاغة صار حديثًا للكاتبين من بعده، وفيهم من لم يعده من قريب أو بعيد، بل فيهم من اكتفى بتلخيص آرائه وأمثلته، على شُحّ في التوضيح.

وإن باحثًا يترك هذا الأمر القوي في نفوس الدراسين من بعده لجدير أن يُعد قمة في موضوعه.

فما بال (السكاكي) و(القزويني) و(السعد) قد سطوا على تعريفاته وأمثلته، ثم لم يشيروا إليه في قليل أو كثير.

وما بال (السكاكي) يعترف بمقام (عبد القاهر) ويترك (ابن سنان)، وقد أخذ منه كما أخذ من (عبد القاهر)؟ أسئلة تتطلب الجواب.

لقد كتب سابقوه شذورًا عن فصاحة الكلام وبلاغته، ولكن ما قاله (ابن سنان) في (سر الفصاحة) هو الأصل الذي قامت عليه مقدمة العلوم الثلاثة المتدرجة في البحث البلاغي... فمن قرأ ما جاء في كتب المتأخرين عن فصاحة الكلمة والكلام وبلاغة القول ومقتضيات المقام، فليعلم أنها أثر بارز من أثار (ابن سنان)، تضاف إلى جهود جافلة نطق بها كتابه الثمين"[١].

[١] تطور البحث البلاغي، د/محمد رجب البيومي، ص٣٥_٣٨.

وكلام أستاذنا العلامة (د/البيومي) _رحمه الله_ حري أن يكتب بماء الذهب.

فإني لأتعجب كيف أن كتاب (ابن سنان الخفاجي) لم ينل من الشهرة والذيوع ما ناله غيره من الكتب التي لم تضف للبلاغة نصف ما أضافه هذا السفر القيم.

ولا أجد سببًا واحدًا يجعل كل من يسطو على كتابه لم يشر إليه من قريب أو بعيد _كما ذكر شيخنا_.

إن المتأمل يجد أثر (ابن سنان الخفاجي) وكتابه في الدرس البلاغي يفوق غيره بعشرات المرات.

فلا أكون مغاليًا إذا قلت: إن كل من أتى بعد (ابن سنان الخفاجي) قرأ له كتابه ونقل عنه صفحات، وأن بعضهم أشار إليه والكثيرون لم يذكروه، وكأن كتابه نبتًا شيطانيًّا ولد هملاً، يسطو عليه من يشاء في أي وقت يشاء.

لقد تأثر البلاغيون بعد (ابن سنان الخفاجي) به، وأكثر هؤلاء تأثُّرًا به العلامة (ابن الأثير) في كتابه (المثل السائر)، الذي نخل (سر الفصاحة) نخلاً، وسطَا على أكثر آراء صاحبه، ونسبها لنفسه بنصها وفصها، على ما سيأتي في مكانه من هذا البحث.

لقد نقل عنه (السكاكي) (والقزويني) و(التفتازاني) فصولاً في الفصاحة، بعد أن شوّهوا ما أراده (ابن سنان) في كتابه من الحديث القيم عن الفصاحة، واكتفى أصحاب الشروح والحواشي بوضع هذه الموضوعات القيمة في الفصاحة والبلاغة التي ذكرها(ابن سنان) بالتفصيل في كتابه في عشرات

الصفحات، بل إن كتابه كله بحث فيه عن (سر الفصاحة)،واكتفى هؤلاء بوضع سطور في مقدمة العلوم الثلاثة، تحت عنوان (مقدمة في الكشف عن الفصاحة والبلاغة)،كما فعل (القزويني) في كتابيه (تلخيص المفتاح) و(الإيضاح).

إن (القزويني) وشراح التلخيص أساءوا فهم ما أراده (ابن سنان) من كتابه، واكتفوا بوضع شروط لفصاحة المفرد، وأخرى لفصاحة الكلام، في عشر صفحات من مقدمة التلخيص والإيضاح.

ولم يكن هذا هو الغرض الرئيس من تأليف كتاب (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي) لمن يتأمل الكتاب ويقرأه جيّدًا، ويتعرف على منهج صاحبه وطريقته في كتابه والغرض من تأليفه.

لقد ظُلم (ابن سنان الخفاجي) حين حُصر جهده في شروطٍ وضعها (القزويني) في كتابه لفصاحة المفرد، وأخرى لفصاحة الكلام.

وسنبين ذلك في موضعه من هذا البحث.

إن كثيرًا من البلاغيين قد نقلوا فصولاً وأبوابًا ونسبوها لأنفسهم، وهو أول من تكلم فيها وأشار إليها، لكنهم عزّ عليهم أن يقولوا: قال (ابن سنان) في كتابه (سر الفصاحة).

وكان العلامة (ابن الأثير) هو من أكثر من نسب لنفسه جهد (ابن سنان) وعمله في كتابه، على ما بينت منذ قليل.

وكما قال شيخنا (د/البيومي) منذ قليل إن كل من أتى بعد الشيخ (عبد القاهر) ونقل عنه سطرًا كان ينسبه، بل كان يقول: (يقول الإمام)، لكنهم كانوا لا يفعلون نفس الشيء عند نقلهم من كتاب (سر الفصاحة).

ولعل الغريب في ذلك أنه يمكن حصر ما نقل عن (الخفاجي) من كتابه دون عناء، على العكس من الموضوعات التي نُقلت عن الشيخ (عبد القاهر).

ومع ذلك لا ندري سببًا واحدًا لتجاهل العلامة (ابن سنان الخفاجي) وعدم النص عليه حين يؤخذ منه.

ولعل مما يزيد دهشتنا أن (ابن سنان الخفاجي) والشيخ (عبد القاهر) قد ولدا في قرن واحد، هو القرن الخامس الهجري، وليس بينهما من الزمن ما يجعلنا نذكر أحدهما ونهمل الآخر.

لقد توفي (ابن سنان الخفاجي) سنة (٤٦٦هـ)، بينما توفي بعده بقليل الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) سنة (٤٧١هـ)، فمن الطبعي أن من قرأ (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي) قد قرأ كتابي (عبد القاهر).

لقد ظُلم العلامة (ابن سنان الخفاجي) وأهمل كتابه، وأخذ منه من أتى بعده جزءًا يسيرًا من عمل الرجل وجهده في كتابه النفيس.

ولذا فإننا في الصفحات القليلة التالية سنعيد سويًّا قراءة كتاب (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي)، وسأعرض لبعض الجوانب التي فُهمت خطأ عنه وعن كتابه، وقد سميت هذا البحث (كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي المفترى عليه).

إذن فالغرض الرئيس هو الكتاب وما دار حوله من نقد ظالم، لا يدل سوى على عدم دراية ومعرفة من حاول نقد هذا السفر العظيم، وعدم القراءة الجيدة لهذا الكتاب؛ فجعلت كثيرًا من الباحثين يتناولون هذا الكتاب بالنقد والهجوم عليه.

ويمكن تقسيم هذا البحث إلى:

*مدخل: بينت فيه الغرض من كتابة هذه الصفحات والخطة التي سأسير عليها .

*تمهيد: وفيه التعريف بابن سنان وبكتابه (سر الفصاحة) في إيجاز.

*الفصل الأول: نقد المنهج العام لكتاب (سر الفصاحة) والرد عليه.

*الفصل الثاني: نقد ابن سنان في توزيع موضوعاته البلاغية على أبواب كتابه والرد عليه.

*الفصل الثالث: نقد ابن سنان في تكرار بعض الموضوعات البلاغية والرد عليه.

*الفصل الرابع: نقد إقحام ما ليس من البلاغة في البلاغة، والرد عليه.

*الفصل الخامس: نقد خطأ (ابن سنان) في بعض آرائه البلاغية في كتابه، والرد عليه.

*خاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات المقترحة.

على أني سأعيد قراءة كتاب (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي) حتى يمكن الرد على هذه المآخذ التي ادعاها أصحابها على (الخفاجي)، على ما سيأتي.

وبعد..

فلن أقول هنا إلا ما قاله (ابن سنان الخفاجي) نفسه في (سر الفصاحة) من ذي قبل، حيث قال: "ولهذا لست أدعي السلامة من الخلل ولا العصمة من الزلل وأعترف بالتقصير وأسأل من ينظر في كتابي هذا بسط عذري والصفح عما لعله يثيره مسلكا صعبا وألفت منه تأليفاً مقتضباً يجب على المنصف الإعراض عما يجدني أشير إلى التجاوز عنه والتغمد له".

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د/عبد المنعم السيد الشحات رزق
الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

التمهيد، وفيه:

١_ التعريف بابن سنان الخفاجي

٢_التعريف بكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان

١- التعريف بابن سنان الخفاجي

العلامة ابن سنان الخفاجي هو صاحب كتاب: (سر الفصاحة)، والترجمة له ستكون في سطور وليست في صفحات، ليس لعدم توفر المصادر والمراجع التي كتبت عنه، وإنما لأن كتابه العظيم قد ألفت حوله الرسائل العلمية والأدبية والنقدية والبلاغية التي تناولت ذلك[١].

ويمكن تلخيص ما كتب عنه وعن حياته في السطور القليلة الآتية: هو الأمير الشاعر الناقد العالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحي بن سنان الخفاجي الشيعي الحلبي[٢].

---

[١] أهم هذه الرسائل:

_ابن سنان الخفاجي وأثره في النقد والبلاغة، د/ عبد الحميد محمد حسن العبيسي، ١٩٧١م، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة.

_قضايا الحداثة في كتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي، دراسة أسلوبية تقابلية، عائشة لطيف محمود عامر، ماجستير، ١٩٩٤م، جامعة عين شمس، كلية الآداب.

_كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل، عبد الرازق أبو زيد بدوي، ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب.

_المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، الباحث/ عبد المنعم السيد الشحات، ماجستير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالمنصورة، وهذه الرسالة لمؤلف هذه الصفحات.

[٢] تراجع ترجمته، في:

فوات الأعيان لابن شاكر الكتبي: ٢/ ٢٢٢، معجم البلدان (حلب)، بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي: ٢/ ٨-٤٠، النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى الأتابكي: ٩٦/٥، الخفاجيون في التاريخ، د/خفاجي، ص١٠١-١٢٤، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ٣/ ١٣٩، ديوان ابن سنان، دار الكتب بالقاهرة، تحت رقم (دز) ١٩٨٢م، تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان: ٥/ ٤٦.

ولد سنة (٤٢٣هـ) في (حلب) من أسرة كريمة، وقد تغنى (ابن سنان) في ديوانه بأجداده كثيرًا، حيث يقول:

وبالشهباء من حزن بن عمرو بيوت ما رفعن على لئيم[١]

وقد كان (ابن سنان) يجوس خلال (حلب)، ويلوذ بعلمائها وأدبائها، ويأخذ عن شيوخها وأساطينها، فأراد أن يكون خلَفًا لشيوخه، فملأ صدره بالعلم والمعرفة[٢].

و(ابن سنان) معتزلي، ومرد ذلك _كما يبدو من كتابه _سر الفصاحة_ تأثره بالكثير من أئمة المعتزلة، أمثال: بشر بن المعتمر[٣]، والجاحظ[٤]، والقاضي عبد الجبار الأسد آبادي[٥].

وتتلمذ (ابن سنان) على علماء عصره، فقد أخذ عنهم العلم والأدب، وفي مقدمتهم شيخه أبي العلاء المعري، شاعر المعرة، وفيلسوفها العظيم[٦].

---

[١] ديوان ابن سنان الخفاجي، ص٢٥.

[٢] الإيضاح بتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي: ٥/ ٢٤٩/ نقلاً عن: قدماء ومعاصرون، د/ سامي الدهان، ص٧٨.

[٣] من أئمة المعتزلة، توفي سنة (٢١٠هـ).

[٤] من أهل البصرة، وله مؤلفات أشهرها: البيان والتبين، والحيوان، توفي سنة (٢٥٥هـ) بالبصرة. تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ٢/ ١٧٠.

[٥] قاضي قضاة الدولة البويهية، وأكبر أعلام المعتزلة.

[٦] هو خاتمة شعراء العصر العباسي الثالث، الشاعر الحكيم الفيلسوف، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي، ولد في المعرة سنة ٣٦٣هـ، وتوفي سنة ٤٤٩هـ، له مؤلفات كثيرة، أشهرها: رسالة الغفران، وسقط الزند، تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان: ٢/٢٦٣.

وقد عاصر (ابن سنان الخفاجي) اثنين من رجال البلاغة، كان لهما عظيم الأثر في بناء صرح البلاغة الشامخ، هما: (ابن رشيق) و(عبد القاهر الجرجاني)، وقد عاش (عبد القاهر) في جرجان، و(ابن رشيق) في القيروان، بينما عاش (ابن سنان) في حلب، ويبدو أن هذا البعد الشاسع بين الأماكن التي عاشوا فيها، يجعل من البعيد أن يتأثر أحدهم بصاحبه، وإذا كان هناك تشابه في بعض الموضوعات التي طرقوها، فليس ذلك إلا لأن طبيعة المنهج تدعو إليه[١]. لكنّ تباعد المسافات لا يلغي بالضرورة تبادل المعرفة والتأثر.

وقد استطاع (ابن سنان) أن يحفر اسمه في تاريخ البلاغة بكتابه: (سر الفصاحة) على الرغم من معاصرته لأعلام بارزين في هذا العلم، كابن رشيق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني، وذلك بتوخيه في تأليف كتابه منهجًا يكاد يكون متميزًا عن مناهج السابقين عنه والمعاصرين له، ولعله كان يعمد إلى هذا التفرد، ليكون له ذكر بين هؤلاء الأعلام[٢].

وتوفي (ابن سنان الخفاجي) بقلعة (عزار) سنة (٤٦٦هـ).

---

[١] أعلام العرب _عبد القاهر الجرجاني_ تأليف/ أحمد أحمد بدوي، ص٣٣٧.

[٢] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، أ.د/ محمد إبراهيم شادي، ص١٢٣.

٢_التعريف بكتاب (سر الفصاحة)

كتاب (سر الفصاحة) لـ(ابن سنان الخفاجي) هو للمتأمل فيه والمنصف، والقارئ الجيد للكتاب برمته درة من درر البلاغة.

ويكفي أن يقول عنه شيخنا، الدكتور/محمد عبد المنعم خفاجي، في مقدمة (أسرار البلاغة) للشيخ (عبد القاهر) هذا الكلام الجيد: "وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجي بالجرجاني، ولم يتأثر الجرجاني بالخفاجي، ولو أن الرجلين اطلع أحدهما على مجهود الآخر في دراسة البلاغة لكان لذلك أثره الخطير في تحويل مناهج البحث البلاغي.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مؤلَّف الخفاجي أعمق تفكيرًا، وأشمل فكرة، وأوسع مدى، وأبلغ بيانًا من كتابي (الجرجاني): الأسرار والدلائل"[١].

ولسنا هنا في مجال المفاضلة بين عالمين كبيرين كابن سنان الخفاجي والشيخ الإمام عبد القاهر، لكن فقط تعجبت من القول الذي قاله شيخنا، الدكتور/خفاجي عن (ابن سنان) وهو يحقق كتاب (أسرار البلاغة) للشيخ (عبد القاهر)، لكنها الأمانة العلمية التي جعلت الرجل لا يتردد في قول الحق حتى وإن خالف ذلك كتاب يقوم هو بشرحه والتعليق عليه.

ويقول عنه أستاذنا الدكتور/ بدوي طبانة في كتابه القيم (البيان العربي): "وكتاب (سر الفصاحة)لابن سنان الخفاجي أثرٌ من أنفَس الآثار التي خلفها القرن الخامس الهجري؛ لأنه خلاصةٌ مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها، وفقه لغتها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي، مع آراء سديدة

[١] مدخل إلى كتاب أسرار البلاغة، د/محمد عبد المنعم خفاجي، ضمن كتاب أسرار البلاغة: ٥٩/١.

في النقد والبلاغة وفنون الأدب، تدل على تبحرٍ وسعة اطلاع، ورأي منظم، وعمق في التفكير الأدبي، وكل ذلك يراه رأي العيان دارس كتاب (سر الفصاحة)، ولقد يخطئ كثير من الباحثين حين يعدون كثيرًا من الكتَّاب في الآخذين في التحول بالدراسة البيانية الواسعة إلى منهج علمي منظم، ويغفلون أثر (ابن سنان) في هذه السبيل، مع أنه لا يقل عن كثير منهم جهدًا في نصرة المذهب العلمي في دراسة الأدب ونقده، والاتجاه نحو المنهج القاعدي الذي أخذ به البلاغيون المعرفون من أمثال (السكاكي) و(الخطيب) وغيرهما، وإن كان يفضل كل أولئك بأنه لم يسلك في دراسة البيان ذلك المنهج القاعدي الجاف الذي ينفر من البلاغة، وإنما سار (الخفاجي) بالبلاغة والنقد الأدبي سيرًا مزدوجًا، فيه التحديد، والتعريف وإلى جانيه النص والمثال، وإلى جانبهما الرأي السديد في الحكم بالإصابة أو سوء الاستعمال"[1].

وهو كلام جيد لكن الموازنة بين عمل (ابن سنان الخفاجي) المتوفى في القرن الخامس الهجري، وعمل (السكاكي) المتوفى في القرن السابع الهجري موازنة ظالمة للعلامة (السكاكي)، حيث اختلف الزمن والغرض من التأليف وطريقة التأليف عند العالمين الكبيرين.

لكن ومع ذلك، فما قاله الدكتور/طبانة عن (ابن سنان الخفاجي) قليل من كثير، وغيض من فيض.

---

[1] البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، د/ بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٧، ١٩٨٨م.

ويقول أستاذنا العلامة، الأستاذ الدكتور/محمد شادي عن (ابن سنان الخفاجي): "استطاع (ابن سنان الخفاجي) أن يحفر اسمه في تاريخ البلاغة بكتابه: (سر الفصاحة) على الرغم من معاصرته لأعلام بارزين في هذا العلم، كابن رشيق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني، وذلك بتوخيه في تأليف كتابه منهجًا يكاد يكون متميزًا عن مناهج السابقين عنه والعاصرين له، ولعله كان يعمد إلى هذا التفرد، ليكون له ذكر بين هؤلاء الأعلام"[١].

ويظهر من كلام هؤلاء الأعلام وغيرهم كثير أن لكتاب (سر الفصاحة) منزلة كبيرة في البلاغة، فإذا كان (ابن المعتز) قد ألّف كتابه (البديع) وقدامة ألّف (نقد الشعر)،وأبو هلال قد ألّف (كتاب الصناعتين)، و(ابن رشيق) قد ألّف (العمدة)، فحسبنا أن نذكر (ابن سنان) ومؤلَّفه القيم (سر الفصاحة)، فإنه حلقة بين هذه الكتب، وبين كتب (عبد القاهر) و(السكاكي) ومدرسته، فـ(ابن سنان) كان كـ(عبد القاهر)؛ كلاهما بنى للبلاغة صرحًا شاهقًا تعتز له وتفتخر، وكلاهما أقام بحوث البلاغة على نهجٍ جديد كان أساسًا لبحوث البلاغيين من بعد[٢].

ويقول الشيخ (المراغي) _رحمه الله_: "ابن سنان الخفاجي الأمير، المتوفى (٤٦٦هـ) له في البلاغة كتاب (سر الفصاحة) وهو من أحسن ما أُلِّف فيها"[٣].

---

[١] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، أ.د/ محمد إبراهيم شادي، ص١٢٣.

[٢] أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر، هامش:٦٠/١، مكتبة القاهرة، لصاحبها علي يوسف سليمان، ط٣، ١٩٧٩م.

[٣] تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص٩٨.

لقد رسم (ابن سنان) لنفسه طريقًا لاحبًا يترسم معالمه، حاز فيه قصب السبق، حيث يضم كتاب (سر الفصاحة) بين دفتيه مسائل بلاغية ونقدية تدل عبى حس مرهف، وذوق فنان، مع الاحتشاد بالشواهد الكثيرة.

أما عن هدف (ابن سنان) من تأليف سفره العظيم (سر الفصاحة) فقد آن الأوان أن نسمعه يلقي علينا خطته وغرضه من تأليف كتابه، ومنهجه فيه؛ حتى نستطيع أن نتدبر جهد (ابن سنان) المتميز، فيقول في أول سطور كتابه: "أما بعد: فإني لما رأيت الناس مختلفين في مائية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها، وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل.

ولم أمِل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال، ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق.

اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة، والعلم بسرها، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته، لتقع الرغبة فيه، فنقول:

أما العلوم الأدبية، فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح؛ لأن الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره. وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة، بل هو مقصور على المعرفة بها. فلا غنى للمنتحل الأدب عما نوضحه ونشرحه في هذا الباب.

وأما العلوم الشرعية، فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو القرآن، والخلاف الظاهر فيما به كان معجزًا على قولين:

أحدهما: أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعًا خرج عن مقدور البشر، والقول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة، مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف، وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة ما هي؟ ليقطع على أنها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم، ونعلم أن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة؛ لأن الكلام الذي أورده خال من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص، وإذا ثبت بما ذكرناه الغرض بهذا الكتاب وفائدته فالدواعي إلى معرفة ذلك قوية، والحاجة ماسة شديدة"[١].

يقول شيخنا، الدكتور/محمد عبد المنعم خفاجي، مؤكدًا ما قاله (ابن سنان) في مقدمته: "وإذا كانت الفكرة الأولى عند (عبد القاهر) حين ألّف في البلاغة هي الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته، فإنها كذلك هي الفكرة التي كانت تسيطر على عقل (ابن سنان) وتفكيره، كلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز، وخرج منها صفر اليدين، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة، ولكن (ابن سنان) يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن، و(عبد القاهر) يرى أن سره هو دقائق ولطائف في نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين، وأسكتت صوت الملحدين، أو قلُ إن سر

[١] سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، تح: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، ص٣، ٤.

الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوي عليه هذه الكلمات من معانٍ"[١].

ويقول أستاذنا الدكتور/محمد شادي: "ولقد ألّف (ابن سنان) كتابه ليخدم رأيه في إعجاز القرآن الكريم، إذ يرد الإعجاز إلى الصرفة، ويرى أنه كان في مقدور العرب الإتيان بمثل القرآن، لولا أن الله صرفهم عن ذلك، يقول: (ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدني معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب هي ما يضاهى القرآن في تأليفه ... وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته؛ بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك)[٢].

ومنهج (ابن سنان) في كتابه يخدم رأيه هذا؛ إذ يمهد للحديث عن الفصاحة والبلاغة بذكر الأصوات والحروف _صفاتها ومخارجها_ ليصل بها إلى أن ما ذهب إليه (الرماني) من أن تأليف الحروف في القرآن يخالف تأليف الحروف الواقعة في فصيح كلام العرب مجرد ادعاء، ثم يذهب إلى أن تأليف الحروف في القرآن وفي فصيح كلام العرب واحد[٣].

ولأن هذا موضع شبهة فقد أعاد القول فيه محتجًّا بأن القرآن نزل بمفردات العرب اللغوية، فيقول: (أو ليس هذه اللفظة _أي اللفظة القرآنية_ قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده، ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيًّا،

---

[١] مقدمة أسرار البلاغة، د/محمد عبد المنعم خفاجي: ١/ ٦٠.

[٢] سر الفصاحة، ص٨٩.

[٣] السابق، الصفحة نفسها.

ولا كانت العرب فهمته؛ فقد أقررت الآن أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة، ولم يتوجه عليك في ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن، فهلا قلت إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً كذلك؟...

وينتهي (ابن سنان) إلى أن الذي يجب اعتماده أن التأليف على ضربين: متلائم ومتنافر، وتأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم، ولا يقدح هذا في وجه من وجوه إعجاز القرآن)[1].

فإن كان مقصد (ابن سنان) بالتأليف _في هذه العبارة_ تأليف حروف الكلمة الواحدة، فإن هذه قضية تحتاج إلى فضل تأمل؛ لأن الحق فيما يبدو أن جهة الخلاف بينه وبين العلامة (الرماني) منفكة؛ فالرماني قال بتمييز تأليف حروف الكلمة القرآنية وإعجاز القرآن من هذه الناحية، إنما ينظر إلى الكلمة القرآنية في سياقها، فإن النظم القرآني يبعث في المفردة حياة جديدة ويكسبها إيحاءًا غزيرًا، وظلاً وفيرًا، أو لعل (الرماني) يقصد اللفظة القرآنية حتى تتمكن في موقعها، وحتى تتفاعل مع سياقها فتضيف إليه ويضيف إليها، ويكون قول (الرماني) _حين قال_ أن ما بين القرآن وكلام العرب في تأليفه حروف الكلمات كما بيْن المتلائم والمتنافر قولاً صادقًا على هذا الأساس، أما ما ذهب إليه (ابن سنان) من أنه لا إعجاز في اللفظة المفردة، أو في ترتيب حروفها، وأن تأليف حروف الكلمة في القرآن وفي كلام العرب، فهو إنما ينظر إلى الكلمة القرآنية منعزلة عن سياقها مفصولة عن مقامها، وهذا

[1] سر الفصاحة، ص٩٠.

صحيح؛ لأن مفردات القرآن اللغوية، هي مفردات العرب اللغوية، وهذا معنى نزول القرآن بلسان عربي مبين.

ولعل هذا الذي دار بين (ابن سنان) و(الرماني) هو السبب في أن (عبد القاهر) أراح نفسه عندما رفض أن يُعول على اللفظة المفردة في البحث عن إعجاز القرآن الكريم.

أما إذا كان (ابن سنان) يقصد بقوله: (وتأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم) تأليف الكلام ونظمه، فهيهات له ذلك؛ للفرق الشاسع بين نظم القرآن ونظم الفصيح من كلام البشر.

ويتضح هذا الفرق لمن له أدنى معرفة وخبرة بأجناس الكلام وكيفية تفاضل الأقوال هدفًا له ومحورًا من أهم محاور كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)"[١].

ولقد أقام (ابن سنان) كتابه على ثلاثة أقسام: "الأول: يتناول شروط الفصاحة في اللفظة الواحدة، والثاني: يتناول شروط الفصاحة في الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض، والثالث: يتناول المعاني مفردة، وفي القسم الأول يمهد لشروط الفصاحة بتعريفها، وبيان الفرق بينها وبين البلاغة، فالفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني"[٢].

---

[١] ينظر تفصيل ذلك في: نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص١٢٦، ط٢.

[٢] سر الفصاحة، ص٤٩، السابق، الصفحة نفسها.

ويمضي (ابن سنان) في "ذكر مقومات الفصاحة، ومن اليسير التعرف على الموضوعات البلاغية التي تناولها والتمي استمدها من (الجاحظ) و(ابن قتيبة) و(الرماني) و(قدامة) و(أبي هلال)، ولكنه تناولها تناولاً خاصًّا في إطار خطته التي رسمها ومنهجه الذي ارتضاه، إذ يندرج تحت فصاحة الألفاظ مفردة ما يتصل بتلاؤم الحروف وصحة الكلمة ووضوحها واعتدالها وحسن استخدامها.

وحول فصاحة الكلام مضمومًا بعضه إلى بعض يتناول ما ذكره المتأخرون حول العيوب المخلة بفصاحة الكلمات، كما يتناول حسن الاستعارة والاستطراد والتوشيح والتسهيم _وهما متقاربان_ وحسن الكناية، والإيجاز بنوعيه والمساواة والتذييل والإشارة والإرداف والتمثيل، والتناسب، ويجعل من أسباب التناسب في اللفظ: السجع والازدواج، وكيفية الابتداء والتصريح والترصيع وحسن الترتيب في التقديم والتأخير والجناس، ومن أسباب تناسب المعنى المطابق، وقريب منه التبديل والمخالف، ويندرج تحت الكلام عن المعاني مفردة: صحة التقسيم، وصحة التشبيه، وصحة المقابلة، وصحة النسق والنظم بحسن التخلص من معنى إلى معنى، وصحة التفسير والمبالغة والغلو والاحتراس.

فيذكر هذه الظواهر على أنها أمور مطلوبة لحسن المعنى.

ومن الواضح أنه يوزع الألوان البلاغية توزيعًا غريبًا بين ما ينبغي للفظ وحده، وما ينبغي للألفاظ مجتمعة، وما ينبغي للمعنى.

ويذكر لابن سنان أنه جعل من أوصاف الكلام المؤلَّف: التناسب، وأدرج تحته ما هو أبين اتصالاً بالتناسب وأجدر بتحقيقه، سواء كان لفظيًّا أم معنويًّا، كالسجع والازدواج والتصدير والتصريع والترصيع وحسن الترتيب والتجنيس والطباق والتبديل والمخالف.

ولعل (الرازي) استمد منه ذلك، إذ جعل هذه الألوان جميعها من النظم الذي يشتد اتصال أجزاؤه، كما يذكر لابن سنان تلك المناقشات الدقيقة لبعض السابقين كالقاضي الجرجاني وأبي بكر الصولي والرماني"[1].

وقد ألف (الخفاجي) كتابه: (سر الفصاحة) "لما رأى الناس مختلفين في الفصاحة وحقيقتها، وفي رأيه أن علم الفصاحة له تأثير كبير في العلوم الأدبية؛ لأن الزبدة منها نظم الكلام على اختلاف تأليفه، ونقده، ومعرفة ما يختار منه، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة، بل هو مقصور على المعرفة بها، فلا غنى لمن ينتحل الأدب عن دراسة الفصاحة على النحو الذي اهتدى إليه في (سر الفصاحة) وكذلك العلوم الشرعية.

وإذا تدبرنا كلام (الخفاجي) في (سر الفصاحة) وعرفنا منه غاية الفصاحة، وجدنا الشبه قويًّا بينه وبين ما قدم به أبو هلال العسكري كتابه (الصناعتين)؛ لأن كلا من الرجلين يجعل للبلاغة أو للفصاحة هدفين: أحدهما هدف أدبي، هو معرفة الأدب والبصر بنقده، والآخر ديني، وهو الوصول بالفصاحة أو البلاغة إلى إدراك وجه الإعجاز في القرآن الكريم.

---

[1] ينظر تفصيل ذلك في: نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص١٢٤ وما بعدها، ط٢، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

وإذا كان (الخفاجي) يدرس الأدب، فقد بدأ دراسته بالبحث في جزئيات هذا الأدب، فقبل أن يتكلم في الصورة الكلية تكلم في جزئيات هذه الصورة ومكوناتها، فالأدب عبارة وتركيب، والعبارة تتكون من كلمات انضم بعضها إلى بعض، والكلمة تتكون من مقاطع، وكل مقطع منها متكون من أصوات.

وقبل أن يتكلم (الخفاجي) فيما يريد من معنى الفصاحة ذكر نبذًا من أحكام الأصوات ونبّه على حقيقتها، ثم ذكر تقطيعها على وجه يكون حروفًا متميزة، وأشار إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم أخذ في التدليل على أن الكلام هو ما انتظم من هذه الحروف، وأتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من الحروف، وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل، وهل اللغة في الأصل مواضعة أو توقيف.

ثم تكلم بعد هذا كله وأشباهه في الفصاحة، ولم يخل ذلك من شعر فصيح وكلام غريب بليغ، يتدرب بتأمله على فهم مراده، فإن الأمثلة توضح وتكشف، وتخرج من اللبس إلى البيان، ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح.

وكان الذي دعاه إلى معالجة هذه الجزئيات، والتعرض لدراسة الأصوات أنه وجد المتكلمين، وإن صنفوا في الأصوات وأحكامها، وحقيقة الكلام ما هو، فلمْ يبينوا مخارج الحروف وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها.

ولقد أوفى (الخفاجي) على ما أراد من الكلام في الأصوات في صدر كتابه، وإن كان ذلك المنهج لم يعجب (ابن الأثير)"[١].

ولا عبرة بهذا النقد؛ "لأن (الخفاجي) في كلامه على الأصوات وعلى الحروف ذكر منها ما يؤلف وما لا يؤلف، ولذلك من بُعد الأثر في وقع الكلام على السمع والذوق، وتقديره عند أهل صناعة البيان ما لا يخفى"[٢].

وسنشبع هذه المسألة في الفصل الرابع من هذا البحث عند الحديث عن (ابن الأثير) ونقده إقحام (ابن سنان) ما ليس من البلاغة في البلاغة.

يقول الدكتور/بدوي طبانة حين وازن بين منهج (ابن سنان) ومنهج (أبي هلال) في الحديث عن الفصاحة والبلاغة: "ولقد كتب بعض السابقين كلمات في فصاحة الكلمة وبلاغة الكلام، بعضها مأثور عن الأدباء والنقاد، وبعضها شرح لهذا المأثور، كأبي هلال العسكري، الذي عقد في كتاب (الصناعتين) فصلاً في الإبانة عن موضوع (البلاغة) في اللغة، وما يجري معه من تصرف لفظها، والقول في (الفصاحة)، وما يتشعب منها، وفصلاً آخر في الإبانة عن حد البلاغة، وعقد بابًا في تمييز جيّد الكلام من رديئه، والتنبيه على خطأ المعاني، وهذا الجهد فضل كبير يذكر لأبي هلال، إلا أنه رجل أديب، يغلب على كتابه أسلوب الاستطراد في كثير من المواضع، والعناية بالنقل، أما

---

[١] البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، د/ بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٧، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.

[٢] السابق، الصفحة نفسها.

البحث المنظم في تلك الأمور فذلك ما يوجد بوضوح في كتاب (سر الفصاحة).

وكتابة (الخفاجي) في الفصاحة هي جلُّ ما نقله علماء البلاغة نقلاً يكاد يكون حرفيًّا، وجعلوه مقدمة لدراسة فنونها الثلاثة، التي لم يفرق بينها (الخفاجي)، كما لم يفرق بينها سابقوه من الباحثين في البيان العربي، وذلك الكلام في الفصاحة، الذي جعله البلاغيون مقدمة لكلامهم تعد من صميم النقد الأدبي، وهو بحث عام شامل لا يدخل في موضوع علم من العلوم الثلاثة على حسب تقسيماتهم"[١].

و"هذا البحث المسهب الذي ذكره (الخفاجي) في (سر الفصاحة) ويجعله البلاغيون في مقدمة ما يعرضون من علوم البلاغة من أمتع البحوث البيانية، بل أهم ما يأخذ بيد الناقد ويشحذ ملكته لإجادة النظر في الأعمال الأدبية، ويأخذ بيد الأدباء، ويرشدهم إلى مواضع الإجادة ليحتذوها، ومواطن الزلل ليتحاشوها.

وليت الدراسات البلاغية اقتصرت على مثل هذا المنهج المجدي في تعرف الأدب، والمعين على تذوقه، بدل هذه القواعد الجافة التي لا تعلم البلاغة، ولا تعين أديبًا، ولا تأخذ بيد الناقد"[٢].

---

[١] البيان العربي، د/بدوي طبانة، ص١٧٣.

[٢] السابق، ص١٨٧.

وكان (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة) "ذا عناية بالبلاغة والعروض، وتجيء آراؤه النقدية من خلال أحكامه البلاغية، وقد عرض لبعض القضايا التي تناولها من جاء قبله من النقاد"[١].

[١] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ص٣٩٨، د/إحسان عباس، دار الشروق، ط٢.

تقديم لا مفر منه
حول نقد كتاب (سر الفصاحة)

تقديم لا مفر منه

يقول أستاذنا الدكتور/محمد موسى: "إذا كان ظاهر كلام العلماء لا يلتئم مع ما استيقن الباحث من أفكار، فلا يغريه ذلك برَدِّه، وإنما عليه أن يراجعه، وأن يناقشه حتى يجد له مخرجًا غير الظاهر.

والمهم هو تجنب المسارعة إلى رفض الكلام الصادر عن أهل العلم، وقد خالف كثير منا هذا الطريق، وامتلأت الكتب باستفساد آراء العلماء من غير دراسة، وبالألفاظ التي تقدح في أفهامهم، وتصرف عن علومهم، وهذه الكتب يقرؤها صغار طلاب العلم الذين ليست لهم الأدوات التي تعينهم على التمييز؛ فتصرفهم عن مصادر العلم"[١].

ويبدو أن هذا الكلام هو ما ينطبق على العلامة الأمير الشاعر والناقد (ابن سنان الخفاجي) صاحب أحد أفضل الكتب البلاغية والنقدية في القرن الخامس الهجري، كتاب (سر الفصاحة).

ولم يُظلَم أحد كما ظُلم العلامة (ابن سنان)؛ فنال منه كثير من الباحثين ومما يُنسَبون إلى البلاغة، حيث لم يتركوا شيئًا في كتابه إلا عابوه وانتقدوه _على ما سيأتي.

ولو كان نقدهم هذا في محله لما دافعت عن (ابن سنان)، وإنما أكثرهم قد اعتقد _عن جهل_ أن جهد (ابن سنان) في كتابه ليس إلا تلك المقدمة التي سطا عليها (القزويني) في كتابيه (تلخيص المفتاح)، و(الإيضاح)، حيث

[١] مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د/محمد أبو موسى، ص٦٨، مكتبة وهبة.

وضع شروطًا عدة لفصاحة المفرد، وأخرى لفصاحة الكلام دون أن ينسب ذلك لصاحبه وهو (ابن سنان الخفاجي).

والحق أن العلامة (ابن سنان) لم يؤلف كتابه لوضع هذه الشروط التي ذكرها (القزويني)، فلم يكن كتابه إلا لبيان سر الفصاحة وموطن الإعجاز في القرآن الكريم.

لقد وضع (ابن سنان الخفاجي) منهجًا في كتابه لم يُسبق به، بل إني لا أكون مغاليًا إذا قلت : إن العلامة (السكاكي) في سفره العظيم (مفتاح العلوم) قد تأثر إلى حد كبير بهذا المنهج؛ حيث بدأ (السكاكي) كتابه _متأثرًا بمنهج ابن سنان_ بالحديث عن الصوت ثم علم الصرف ثم علم النحو ثم علم البلاغة...الخ.

ولقد ظُلم (ابن سنان الخفاجي) في حياته، وظُلم بعد مماته بسطو أكثر البلاغيين على كتابه _يتقدمهم العلامة (ابن الأثير) في (المثل السائر)_ وإهمالهم له، وعدم نسبة الآراء إليه، بل وتجاهلهم لجهده في كتابه.

ولا أدري سببًا واحدًا لذلك، فلو كان مؤلَّف (الخفاجي) يشبه غيره من الكتب في عصره لقلت إنه لم يزد شيئًا عن ما سبق حتى إنه لم يستحق من العلماء بعده أن يشيروا إليه أو يذكروه وينسبوا إليه ما نقلوه عنه _في تبجح_ دون نسبة.

وخير شاهد على ذلك هو (ابن الأثير) ومن بعده (القزويني) وتلاميذه.

يقول الأستاذ/مصطفى لطفي المنفلوطي: "إن رأيت شاعرًا من الشعراء، أو عالمًا من العلماء، أو نبيلاً في قومه، أو داعيًا في أمته قد انقسم الناس في

النظر إليه، وفي تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا، وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم"[١].

ويقول في موضع آخر: "لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعًا على حبك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين، الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، يضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلبًا لرصاصهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرون فيزدجر"[٢].

وإذا كان الأمير (ابن سنان الخفاجي) من العظماء _كما هو مفهوم من كلام العلامة المنفلوطي_ وكما يدل أثر كتابه على كل من أتى بعده، فلِمَ سطا على مؤلفه كل من أتى بعده وتجاهلوه تمامًا، وكأن سفره العظيم لا قيمة له، ولا فائدة منه؟!.

لقد ظُلم (ابن سنان) في حياته، ومات مسمومًا وسطا عليه لصوص العلم في تبجح بعدما نخلوا كتابه نخلاً، وشوهوا ما فيه، ثم لم يكتفوا بذلك بل نقدوا ما شوهوه بسبب جهلهم وعدم قراءتهم الكتاب وفهم منهج صاحبه الذي أراده وخطته التي اتبعها.

لقد كان (ابن سنان) أمينًا ينسب الرأي لصاحبه، متواضعًا في تعامله مع خصمه، لا تمر الصفحات إلا ويستعطف قارئه في قبول العذر له، لم يكن

---

[١] مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، ص٥٥٠، المؤلفات الموضوعة، دار الجيل.

[٢] السابق، ص٥٥٤.

بالمحدث عن نفسه أو المعلن عن بضاعته، ولم يتعصب ضد أحد، وكلما اقتربت منه ألفيته كريمًا عفًّا نزيهًا، لا يذكر أحدًا باسمه، وإنما نجده يقول: "ورأت أبا الحسن _يعني الرماني_، وألفيت أبا القاسم _يعني الآمدي.

وكان حذرًا من أن تظن به الظنون عند نقده لأحد، من تعمد تجريحه والتعصب ضده، فكان يكرر اعتذاره بين آن وآخر.

يقول عند إيراد شواهد عديدة من قبيح الاستعارات _معقبًا على ذلك: "إننا لم نذكر هذه الأبيات الذميمة وغرضنا الطعن على ناظمها، وإنما قادتنا الحاجة في التمثيل إلى ذكر الجيد والرديء والفاسد والصحيح،...ومعاذ الله أن يخرجنا بغض التقليد وحب النظر من الطرف المذموم في الإتباع والانقياد إلى الجانب الآخر في التسرع إلى نقص الفضلاء، والتشييد لما لعله اشتبه على بعض العلماء، والرغبة في الخلاف لهم، وإيثار الطعن عليهم، بل نتوسط إن شاء الله بين هاتين المنزلتين؛ فننظر في أقوالهم ونتأمل المأثور عنهم، ونسلط عليه صافي الذهن، ونرهف له ماضي الفكر، فما وجدناه موافقاً للبرهان وسليما على السبر؛ اعترفنا بفضيلة السبق فيه، وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله.

وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا في تأويله، وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسن وجوهه وأجمل سبله؛ إيجاباً لحقهم الذي لا ينكر، وإذعاناً لفضلهم الذي لا يجحد"[١].

[١] سر الفصاحة، ص١٤٤.

وقد تعمدت ذكر هذه السطور؛ لأني أدركت أن (ابن سنان) كان حينما يتحدث عن (الجاحظ) أو (الآمدي) مادحًا، وكان يذكر مسلمًا أو أبا تمام ناقدًا، لا تدرك كبير فرق بين تأييده ورفضه، واستحسانه ونقده لغيره، أما غيره فكان يتتبع سقطاته ويشن عليه الحملات.

ويبدو أن (ابن سنان) كان يدرك جيّدًا ما سيدور حول مؤلَّفه من نقد، فراح يقول عند حديثه عن الكلام في الألفاظ المؤلفة: "فنقول: إن الموضوع هو الكلام المؤلف من الأصوات على ما قدمته. وقد ذكرت فيه ما يقنع طالب هذا العلم، وشرحت من حال اللفظة بانفرادها وما يحسن فيها ويقبح، ما اعتمدت في تلخيصه وإيضاحه، على أنني لم أرجع فيه إلى كتابٍ مؤلَّف، ولا قول يروى، ولا وجدت ما ذكرته مجموعًا في مكان، وإنما عرَفته بالدربة، وتأمل أشعار الناس، وما نبه أهل العلم في أثباتها، ولهذا لست أدعي السلامة من الخلل، ولا العصمة من الزلل، وأعترف بالتقصير، وأسأل من ينظر في كتابي هذا بسط عذري، والصفح عما لعله يثيره مسلكًا صعبًا، وألفت منه تأليفاً مقتضباً يجب على المنصف الإعراض عما يجدني أشير إلى التجاوز عنه والتغمد له"[1].

وفي الكلام السابق يعترف الأمير (ابن سنان) بالتقصير، وهو لم يقصر، وغيره يتهمه بالتقصير، وهم أقرب إليه.

[1] التغمد له: التغاضي عنه، كما ذكر محقق الكتاب في هامش (١)، سر الفصاحة، تح: د/النبوي عبد الواحد شعلان، ص١٢٥.

و(ابن سنان) يستعطف من يقرأ كتابه أن يتقبل عذره، وليتهم فعلوا ذلك كما فعل هو مع خصومه، ولكنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وراحوا يتناقلون المآخذ _من وجهة نظرهم_ دون أن يكلفهم ذلك أن يتأملوا منهجه، ويتفهموا طريقته.

حتى إن محقق الكتاب نفسه يعلق على قول (ابن سنان) السابق، وهو قوله: "على أنني لم أرجع فيه إلى كتابٍ مؤلَّف، ولا قول يروى..." _بقوله: "وبهذا الادعاء يسقط (ابن سنان) كل ما كتبه العلماء السابقون عليه والمعاصرون له، مثل الباقلاني وعبد القاهر..."[١].

على أن المحقق لم يقرأ الكلام جيِّدًا حتى اتهم (ابن سنان) بما اتهم، ولو دقق في عبارته لوجده قد قال _عطفًا على الجملة التي علق عليها المحقق_ "ولا وجدت ما ذكرته مجموعًا في مكان"، لعَلِم مقصود (ابن سنان الخفاجي) من كلامه.

كما أني أؤكد للمحقق أن (ابن سنان) _وإن عاصر الشيخ عبد القاهر_ لكني أكاد أزعم أن أحدهما لم يطلع على كتاب الآخر، ويظهر هذا عند من يقرأ الكتابين، ويدرس منهج صاحبيهما.

لكن محقق الكتاب تعجل _كغيره_ واتهم (الخفاجي) بما اتهم.

ويمكن القول إن سبب تورط أصحاب هذه المآخذ _إن صح التعبير_ وتطاولهم على العلامة (ابن سنان) ونقده يرجع إلى أمور:

---

[١] هامش سر الفصاحة، ص١٢٥، تح: د/النبوي عبد الواحد.

١_ إما عدم الاطلاع على كتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي جملة وتفصيلاً، مما جعل الحكم عليه ينقصه البرهان والدليل، فهو حكم عام، لم يطلع صاحبه على مجموع كلام (ابن سنان).

٢_ وإما خطأ في فهم نص كلامه، مما جعل بعضهم يبني خطأ على خطأ.

٣_ وإما الحكم عليه بمفاهيم غير مناسبة لعصره الذي نشأ فيه.

٤_ وإما تعصب عليه لمجرد التعصب؛ حبًّا في الظهور والشهرة.

على أني أميل إلى أن معظم هذه المآخذ سببها عدم فهم كتاب (سر الفصاحة) والغرض من تأليفه، وطريقة تناول صاحبه لموضوعاته.

ولذلك يمكن تقسيم نقد (ابن سنان) في كتابه (سر الفصاحة) إلى عدة فصول سنعرضها في الصفحات الآتية :

الفصل الأول
نقد المنهج العام لكتاب (سر الفصاحة)
والرد عليه

الفصل الأول
نقد المنهج العام لكتاب (سر الفصاحة)
والرد عليه

شن بعض البلاغيين هجومًا على (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة)، فاتهمه بعضهم أنه لم يكن موفقًا في منهجه واختياره لترتيب موضوعاته، وخلو كتابه من التنسيق والتبويب، وعدم وجود تفسير مقنع لذلك، فيقول أحدهم: "إن (سر الفصاحة) به عيب كبير في الأساس الذي قام عليه، وخللٌ ظاهر في تبويب أبوابه"[١].

وقد تكرر هذا المأخذ عند كثير من البلاغيين[٢]الذين تصفحوا كتاب (سر الفصاحة) ولم يقرأوه، فهاجموا صاحبه بذلك واتهموه في منهجه، مما جعل أهم ما يميز الكتاب عيبًا وخللاً.

ولا أدري على أي أساس حكموا هذا الحكم، هل قرأوا (سر الفصاحة) كاملاً، واستوعبوا وهضموا ما كتبه صاحبه حتى يحكموا بما حكموا به، واتهموا (ابن سنان الخفاجي) بعيب هو أهم ما تفرد به صاحبه، أنه أتى بمنهج جديد، وطريقة لم يُسبق بها، وجمع في كتابه موضوعًا واحدًا بحث فيه عن (سر الفصاحة) وسبب كون القرآن الكريم معجزًا.

---

[١] سر الفصاحة، دراسة وتحليل، د/عبد الرازق أبو زيد، ص٥٨، والتصوير البياني، د/حفني شرف، ص٣، ومجلة الأزهر، أ/كامل الفقي، ص٤٥٢، ١٣٦٤هـ.

[٢] السابق.

فلست أدري ماذا يعني هؤلاء العلماء بقولهم عن (سر الفصاحة): إن به عيبًا كبيرًا في الأساس الذي قام عليه، وخللاً ظاهرًا في ترتيب أبوابه!.

أكان يريد من هاجم (ابن سنان) في (منهجه) أن يؤلف الخفاجي كتابه وهو المتوفى في القرن الخامس بطريقة العلامة (السكاكي)، من تقسيم للبلاغة إلى (معان وبيان)، أو على طريقة (القزويني) من تقسيمها إلى معان وبيان وبديع.

أقول لهؤلاء لم يكن (السكاكي) و(القزويني) قد ولدوا بعدُ حتى يفهم ذلك (ابن سنان).

"لقد رتب (ابن سنان) كتابه على طريقته الخاصة التي بوأته مكانهُ بين علماء عصره، وجعلته منفردًا يقف كتابه شامخًا وسط هذا الركام الهائل من الكتب، فقد استطاع (ابن سنان) أن يحفر اسمه في تاريخ البلاغة ، وذلك بتوخيه في تأليف كتابه منهجًا يكاد يكون متميزًا عن مناهج السابقين عنه، والمعاصرين له"[١].

هذا ما يجب أن يقال لمن قرأ كتاب (الخفاجي) وتدبر منهج صاحبه، وخطته التي رسمها لنفسه، فلم يغفل عنها من أول سطر في كتابه وحتى آخره.

إن المنصف يجد منهج (ابن سنان) منهجًا متفرّدًا لم يُسبق به، ولذا لا نتعجب حين نسمع (ابن سنان) نفسه يقول في مقدمة كتابه بعد أن عرض خطته والغرض من تأليف سفره العظيم: "فإذا جمع كتابنا هذا كله وأخذ بحظ

[١] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص١٢٣، ١٢٤.

مقنع من كل ما يحتاج الناظر في هذا العلم إليه؛ فهو مفرد في بابه، غريب في غرضه"[١].

ولعل من الطريف أن يعلق محقق الكتاب على قول (ابن سنان) السابق بقوله: "ليس المراد بالغرابة :ما ما يخالف الفصاحة أو عدم المعرفة، وإنما المقصود أنه الوحيد في بابه، فكأنه غريب"[٢].

فقد فسر الواضح بالواضح، حيث إن المقصود أن منهج (ابن سنان) في كتابه، وغرضه بدراسة الفصاحة لم يسبق إليه على هذا النحو وبتلك الطريقة، وبهذا المنهج الذي رسمه لنفسه العلامة الخفاجي.

ولست أدري أي غرابة، وأي خلل الذي يقصده الدكتور/عبد الرازق والعلامة الدكتور/حفني شرف، فقد نص (ابن سنان) من أول سطر على خطته التي سيتبعها ويلتزم بها، فلمْ يغفل عن هذه الخطة وهذا المنهج لحظة، فلم يضطرب، ولم يضع شيئًا إلا في مكانه الذي أراده ورسمه، فيقول (ابن سنان) في أول سطر من كتابه: "أما بعد: فإني لما رأيت الناس مختلفين في مائية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها، وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل.

ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال، ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق.

---

[١] سر الفصاحة، ص٥.

[٢] السابق، هامش الصفحة نفسها.

اعلم أن الغرض بهذا الكتاب إذا كان معرفة حقيقة الفصاحة، والعلم بسرها، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته، لتقع الرغبة فيه"[١].

إذن فالغرض من تأليف كتابه كما ذكر هو في (سر الفصاحة) _اختلاف الناس في حقيقة الفصاحة، فألَّف (ابن سنان) سفره العظيم، وعرض فيه الأصول والشروط التي على أساسها يصبح الكلام فصيحًا، ولذا نجده يسمي كتابه: (سر الفصاحة).

ولم تكن هذه المقاييس والشروط هي التي سطرها (الخطيب القزويني) ومن تبعه، بعد ما سطا عليها من كتاب (سر الفصاحة).

ولم يكن الغرض من هذا الكتاب هو هذه السطور المقتضبة التي أشار إليها البلاغيون في أول مؤلفاتهم، وذلك حينما قال (القزويني) في مفتتح كتابه التلخيص: "الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، والبلاغة يوصف بها الأخيران فقط، فالفصاحة في المفرد: خلوه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس...وفي الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد، مع فصاحتها"[٢].

فليس المقصود من تأليف كتاب (سر الفصاحة) هو هذه السطور التي اقتطعها البلاغيون المحدثون ووضعوها في أول كتبهم على أنها هي كتاب (سر الفصاحة).

---

[١] سر الفصاحة، ص٣.

[٢] تلخيص المفتاح للقزويني، ص٦، ٧. تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، والإيضاح في علوم البلاغة، شرح د/محمد عبد المنعم خفاجي: ٢١/١ وما بعدها، دار الجيل، بيروت.

فلم يكن هذا ما أراد (ابن سنان الخفاجي) من تأليف كتابه، ولعل هذا الفهم الخطأ جعلهم يتهمون (ابن سنان) أن كتابه به خلل في التبويب والتقسيم.

وحينما ألّف العلامة (السكاكي) سفره العظيم (مفتاح العلوم) اتهمه بعض البلاغيين أنه قعّد البلاغة حين بوبها ووضع قواعد كثيرة لكتابه، مما أفقده المتعة والتحليل البلاغي الذي يجب أن تكون عليه البلاغة.

وانهال عليه الشيخ (المراغي) والشيخ (عبد المتعال الصعيدي) _وهم الأعلام_ والشيخ علي عبد الرازق، والدكتور/شوقي ضيف والدكتور/محمد نايل، وكان نصيب الأسد للدكتور/أحمد مطلوب، في كتابيه: (البلاغة عند السكاكي) ، و(القزويني وشروح التلخيص).

وقد وضعت بحثًا للرد على ما تهموا به (السكاكي) ظلمًا، في بحث عنوانه: (السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين).

لقد اتهم هؤلاء الأعلام وغيرهم العلامةَ (السكاكي) بالجمود والفلسفة وأنه أفقد البلاغة جمالها وحيويتها حين وضع لها القواعد.

وحين ألَّف (ابن سنان الخفاجي) كتابه (سر الفصاحة) اتهمه كثيرون بخلو كتابه من التبويب والتنسيق، وأن في مؤلَّفه خلل ظاهر في ترتيب أبوابه.

ونسي هؤلاء جميعًا - أو تناسوا - زمن تأليف الكتابين والغرض من تأليفهما، والسبب في ذلك.

لقد اقتطع بعضهم جزءًا من (سر الفصاحة) ثم عابوا على الرجل تبويبه وتنسيقه.

وقرأ أكثرهم القسم الثالث من (مفتاح العلوم) للسكاكي وفَصَلوه عن باقي الكتاب ثم انهالوا عليه بالنقد.

ولذلك فإني أجدني أعود إلى قراءة عبارة أستاذنا الدكتور/محمد أبو موسى السابقة، والتي يقول فيها: "والمهم هو تجنب المسارعة إلى رفض الكلام الصادر عن أهل العلم، وقد خالف كثير منا هذا الطريق، وامتلأت الكتب باستفساد آراء العلماء من غير دراسة، وبالألفاظ التي تقدح في أفهامهم، وتصرف عن علومهم، وهذه الكتب يقرؤها صغار طلاب العلم الذين ليست لهم الأدوات التي تعينهم على التمييز؛ فتصرفهم عن مصادر العلم"[١].

وتلك هي آفة الآفات أن يتم تشويه تراثنا وهدمه دون تمحيصه وفحصه وتدبر ما فيه.

لقد اتهم بعض البلاغيين (ابن سنان الخفاجي) _كما تهموا العلامة السكاكي من ذي قبل_ دون أن يكلفهم ذلك قراءة الكتابين وقراءة ما يبغيان الوصول إليه من تأليف الكتابين.

وقد كان (ابن سنان الخفاجي) واضحًا في بيان الغرض من تأليف كتابه وعرض منهجه، يقول: "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبدأ من أحكام الأصوات، والتنبيه على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجه تكون حروفًا متميزة، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها، ثم نتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من

[١] مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د/محمد أبو موسى، ص٦٨.

الحروف، وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل، وهل اللغات في الأصل مواضعة أو توقيف، ثم نبين بعد هذا كله وأشباهه مائية الفصاحة.

ولا نخلى ذلك الفصل من شعر فصيح، وكلام بليغ يتدرب بتأمله على فهم مرادنا، فإن الأمثلة توضح وتكشف وتخرج من اللبس إلى البيان، ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح، فإذا أعان الله تعالى ويسر تمام كتابنا هذا كان مفرداً بغير نظير من الكتب في معناه.

وذلك أن المتكلمين وإن صنفوا في الأصوات وأحكامها وحقيقة الكلام ما هو فلم يبينوا مخارج الحروف وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها، وأصحاب النحو وإن أحكموا بيان ذلك فلم يذكروا ما أوضحه المتكلمون الذي هو الأصل والأس، وأهل نقد الكلام فلم يتعرضوا لشيء من جميع ذلك، وإن كان كلامهم كالفرع عليه"[١].

هذا هو منهج (ابن سنان) الذي التزمه تمامًا عند تأليفه (سر الفصاحة)، وقد كان بارعًا في هذا المنهج، حيث بدأ كتابه بالحديث عن الصوت ثم الكلمة ثم الكلام، فوضع فصلاً في الأصوات ثم تلاه بفصل آخر في الحروف، وانتقل منه إلى الكلام فاللغة، ثم وصل إلى مبتغاه والغرض من تأليفه، فعقد فصلاً للكلام في الفصاحة ووضع شروطًا لها، ثم الكلام في الألفاظ المؤلفة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المعاني المفردة، ثم ختم سفره العظيم بفصول تحدث فيها عن ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام، والفرق بين المنظوم والمنثور، وما يحتاج مؤلف الكلام إلى المعرفة به.

---

[١] سر الفصاحة، ص٤، ٥.

وقد كان (ابن سنان) في غاية الدقة؛ حيث نجد في كتابه الفصل يسلم الفصل، دون أن تشعر بأي نفور أو اضطراب.

وقد درس صاحب (سر الفصاحة) المسائل البلاغية في ضمن هذه الفصول، وبالطريقة التي أرادها، وفي مكانها الذي يجب أن تكون فيه، حتى تخدم غرضه الرئيس، وهو الوصول إلى (سر الفصاحة).

هذا كله ما جعل العلامة الدكتور/محمد شادي يقول: "وقد استطاع (ابن سنان) أن يحفر اسمه في تاريخ البلاغة بكتابه: (سر الفصاحة) على الرغم من معاصرته لأعلام بارزين في هذا العلم، كابن رشيق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني، وذلك بتوخيه في تأليف كتابه منهجًا يكاد يكون متميزًا عن مناهج السابقين عنه والمعاصرين له".

نعم لم يكتب أحدٌ كما كتب (الخفاجي)، ولم يؤلف أحد كتابًا على هذا النحو، وتلك الطريقة وذلك المنهج المميز كما ألّف (ابن سنان الخفاجي).

أيحق للدكتور/شرف، والدكتور/عبد الرازق بعد هذا كله أن يتهما (ابن سنان) بالخلل في منهجه وفي ترتيب أبواب كتابه!.

الخلل في عدم فهم واستيعاب ما كتبه (ابن سنان) وما أراده من تأليف كتابه.

الخلل في قياس كتاب (ابن سنان) على كتب تالية عليه، وعدم الاعتداد بالزمن والغرض الرئيس من تأليف كتابه.

لو فكر كل من قام بنقد (ابن سنان الخفاجي) والعلامة (السكاكي) وغيرهما من العلماء الأفذاذ قبل قراءة كتب هؤلاء المؤلفين وفهم مرادهم لما انهالوا عليهم بالنقد والتجريح.

إن (ابن سنان الخفاجي) علم لا يبارى، ولم ينصفه أحد، بل سطو عليه، ولم يكتفوا بذلك بل اتهموه بالاضطراب في تأليفه وعدم الترتيب والتنسيق، وكأن هؤلاء - وغيرهم - هم من ألّفوا (سر الفصاحة)، وهم من سطروا سطوره.

لا أدري كيف يحق للدكتور/شرف والدكتور/عبد الرازق وغيرهما أن يتهما (ابن سنان الخفاجي) بهذه الاتهامات، وهم لم يقرأوا كتابه جيِّدًا، ولم يفهموا غرضه من تأليفه، وطريقة تناوله لما كتبه.

يقول الأستاذ/كامل الفقي، في مجلة الأزهر١٣٦٤هـ: "وظهرت في كتب عبد القاهر مميزات لم يتمتع بها (سر الفصاحة)، من تخليص العلم من الأمور الأجنبية عنه، ومن قربه إلى التحديد العلمي، والتنسيق المنظم، والاستيفاء الشامل.

على أن (ابن سنان) كان متأخرًا في الزمن عن أبي هلال العسكري...وكان ذلك شفيعًا لأبي هلال لو أن كتاب (الصناعتين) قد شابه شيء من البعد عن التحديد والتبويب، أو حوى خطأ بين مسائل غير وثيقة الاتصال بالبلاغة، ولكن نظرة إلى الرجلين تعطيك عكس القضية، وخلاف ما كان منتظرًا، وما بالنا نذهب بعيدًا، وهذا هو عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ تراه منظمًا في كتابه، كامل التهذيب.

ثم يقول الأستاذ الفقي بعد سطور قليلة: ونريد أن نخلص من هذا العرض إلى أن هؤلاء الذين سبقوا في الزمن (ابن سنان) ظهر للتطور الزمني والتدرج الطبعي أثر في تأليفهم، فمضى كلٌّ نحو الكمال شيئًا فشيئًا...وكان من الطبعي لو أن هذه السنة انتظمت أن ترى أثر التطور في مؤلَّف (الخفاجي)، فيكون أبلغ من هذا تنسيقًا، وأكمل تبويبًا، وأوفى منه بحثًا"[1].

نقول: إن موازنة (ابن سنان) بالشيخ (عبد القاهر الجرجاني) وانفراد (عبد القاهر) بمسائل بلاغية لم يشر إليها (ابن سنان) كالمجاز المرسل، ليس مما يجب أن ينتقد به الخفاجي؛ لأنه لم يذكر من المسائل البلاغية إلا ما يخدم منهجه وغرضه، كغيره من علماء عصره، فليس من الضروري أن يذكر (ابن سنان) كل ما ذكره (عبد القاهر).

على أن (عبد القاهر) نفسه قد خلا مؤلَّفه من مسائل بلاغية ذكرها (ابن سنان) كالإيجاز والإطناب والمساواة، فبينما لم يتحدث الشيخ (عبد القاهر) إلا عن (الحذف) أجاد (ابن سنان) في الحديث عن الإيجاز بأنواعه، والإطناب والمساواة.

ومع هذا فلا يحق لأحد أن يتهم (الجرجاني) بالتقصير أو يعيب عليه صنيعه؛ لأنه ذكر من المباحث البلاغية ما يخدم قضية (النظم) التي ظل يدافع عنها في كتابيه.

---

[1] مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ص٣٥٣، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠، و المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، الباحث/ عبد المنعم السيد الشحات رزق، ص٣٤٨ وما بعدها.

كما أني أرجح أن يكون سبب إهمال (عبد القاهر) لمبحث (الإيجاز والإطناب والمساواة) _إن صح التعبير_ أن يكون قد أدرك مدى اكتمال هذا المبحث على يد (الرماني) و(ابن سنان الخفاجي)، أما خلو (سر الفصاحة) من المجاز المرسل _مثلاً_ فلعل ذلك لأن المجاز المرسل ليس في وضوح الاستعارة والتشبيه، و(ابن سنان) يهتم بالفصاحة التي تعني الوضوح والبيان.

وأما قول الأستاذ/الفقي: "بتفوق أبي هلال على ابن سنان في التحديد والتبويب، مع أن العسكري سبق (ابن سنان) في الزمن".

فابن سنان _للمتأمل في كتابه_ لا يقل عن أبي هلال تنظيمًا وتحديدًا وتبويبًا، فقد ألَّف (الخفاجي) كتابه للبحث عن الفصاحة، ولذلك بدأ بالصوت فالحرف فالكلمة حتى وصل إلى النظم والتأليف، وقد استلزم ذلك التدرج منه _كما قلت_ ترابط فصول الكتاب وأبوابه، بحيث لا يمكن فصل أي جزء منه عن الآخر، ويستلزم من قراءة فصل فيه قراءة ما قبله وما بعده، وهذا ما جعل البعض يتوهمون أن (ابن سنان) لم يرتب ولم يبوب كتابه.

على أن أبا هلال الذي احتج به الأستاذ الفقي في (مجلة الأزهر) قد ذكر مسائل من علم البيان والمعاني، (كالإرداف والكناية والاستعارة والمجاز والاعتراض) وأدرجها في حديثه عن البديع، ومع هذا فلا لوم عليه.

وأما موازنة (ابن سنان) بـ(ابن المعتز) فقد أدرج (ابن المعتز) (التشبيه والاستعارة والكناية) في كتابه (البديع)؛ لأن مفهوم البديع عنده يختلف عن مفهوم البديع الذي استقر عليه المتأخرون.

ولا أدري كيف يحق للأستاذ الفقي _مع تقديري له_ أن يجتهد في إثبات اضطراب (ابن سنان) في منهجه، وهو يدرك جيّدًا أن (الخفاجي) بكتابه (سر الفصاحة) قد وضع لبنة في بنيان البلاغة الشامخ.

ويبدو أنه أحس بذلك فراح يقوله: "ولعل من الإنصاف أن نلتمس للخفاجي في ذلك عذرًا، فقد كان واليًا، وللولاية من صاحبها شغل، ولها عليه حقوق... وقد كان شاعرًا وللشاعر نزعة هي وحي الإلهام وسبح الخاطر... فحين يعمد إلى التأليف في علم لا يواتيه لتحريره إلا ما ألفه في شعره من هذه المعاني الطليقة، فيكون حرًّا مرسلاً، مجانبًا القيود، نافرًا من التقليد"[١].

فالأستاذ الفقي قد حاول أن يبحث عن تفسير لاضطراب (ابن سنان) _من وجهة نظره في منهجه_ فالتمس لذلك عذرًا واهيًا.

فإذا كان (ابن سنان) شاعرًا يجانب القيود وينفر من التقليد...، كما يقول الأستاذ الفقي، فإن (ابن المعتز) كان شاعرًا بارعًا، واحتج به الأستاذ الفقي لدقة التنظيم والتبويب.

والحقيقة التي لا مفر من ذكرها والتأكيد عليها أن (ابن سنان) كان بارعًا في تنظيمه وتبويبه، ومنهجه الذي جعله منفردًا بين علماء عصره.

---

[١] مجلة الأزهر، ص٤٥٣، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠.

يقول الدكتور/أحمد موسى، في كتابه: (الصبغ البديعي): "هذه صورة مصغرة من كتاب (سر الفصاحة)، الذي فرغ صاحبه من تأليفه (٤٥٤هـ)، كما يقول في آخره، تحس منها أبرز مميزات هذا الكتاب من حسن تنسيق وتبويب، وإحكام بين مسائله جعلها متماسكة تماسكًا قويًّا، مترتبًا بعضها على بعضٍ آخر، مما ينبئ عن مبلغ ما بذله (ابن سنان) من مجهود شاق، وتعب مضن، أثمر أحسن الثمر، وأعقب أحمد النتائج، وكان من أقوى الدعائم التي ارتكز عليها المتأثرون في التفريق بين اللفظي والمعنوي من ألوان البديع"[١].

قول أستاذنا الدكتور/أحمد موسى: إن أبرز مميزات كتاب (سر الفصاحة) حسن التنسيق والتبويب، والتماسك القوي بين مسائل الكتاب وفصوله = فيه دليل على أن سيادته قد قرأ الكتاب قراءة جيدةً، واستوعب ما فيه، وأدرك ما هو منهج صاحبه، وما الغرض من تأليفه، فحكم سيادته بما حكم، أما غيره _وهم كثر_ فحكموا على الكتاب بعد تصفحه فحسب، والاطلاع على فهرس الموضوع دون أن يتوصلوا إلى غرض (ابن سنان) الرئيس من تأليف سفره العظيم (سر الفصاحة).

يقول أستاذنا الدكتور/عبد المنعم خفاجي: "وبعد: فلسر الفصاحة منزلة كبيرة في البلاغة، فإذا كان (ابن المعتز) قد ألّف كتابه (البديع) وقدامة ألّف (نقد الشعر)، وأبو هلال قد ألّف (كتاب الصناعتين)، و(ابن رشيق) قد ألّف (العمدة)، فحسبنا أن نذكر (ابن سنان) ومؤلَّفه القيم (سر الفصاحة)، فإنه حلقة بين هذه الكتب، وبين كتب (عبد القاهر) و(السكاكي) ومدرسته.

---

[١] الصبغ البديعي في اللغة العربية، د/أحمد إبراهيم موسى، ص٢١٨، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م.

فـ(ابن سنان) كان كـ(عبد القاهر)؛ كلاهما بنى للبلاغة صرحًا شاهقًا تعتز به وتفتخر، وكلاهما أقام بحوث البلاغة على نهجٍ جديد كان أساسًا لبحوث البلاغيين من بعده"[١].

نعم أقام (ابن سنان الخفاجي) بحوث البلاغة على نهج جديد لم يسبق إليه، وطريقة جديدة، جعلته يُنتَقد ممن لم يفهموا ذلك.

[١] أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر، هامش:٦٠/١، مكتبة القاهرة، لصاحبها علي يوسف سليمان، ط٣، ١٩٧٩م.

الفصل الثاني
نقد ابن سنان في توزيع موضوعاته البلاغية على أبواب كتابه والرد عليه

الفصل الثاني

نقد ابن سنان في توزيع موضوعاته البلاغية على أبواب كتابه والرد عليه

يقول الأستاذ الفقي: "يذكر كتاب (سر الفصاحة) مسائل من صميم المعاني فيما هو من مباحث البيان، ويقحم المسائل البديعية في غيرها مما هي من موضوع البيان والمعاني"[١].

ويقول الأستاذ/عبد الرازق أبو زيد: "إن كتاب (سر الفصاحة) به خطأ ملموس في توزيع موضوعاته على أبوابها"[٢].

أقول للأستاذَين وهل كان في عصر (ابن سنان) ما يسمى بـ(المعاني والبديع)، حتى يمكن نقده، ونقد توزيع موضوعاته على أبواب كتابه.

كيف يمكن لنا أن ننقد عالمًا كبيرًا كابن سنان الخفاجي بأنه لم يدرك أن هناك ما يسمى (علم المعاني وعلم البيان) وهذا التقسيم كان بعده بقرنين أو أكثر من الزمان.

ثم هل ألف العلامة (الخفاجي) كتابًا في علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) حتى نشن عليه حربًا وننقده.

لا أدري كيف يخرج هذا الكلام من عالمين كبيرين في البلاغة.

وأي توزيع هذا الذي أراده الأستاذ/عبد الرازق!

---

[١] مجلة الأزهر، ص٤٥٢، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠.

[٢] سر الفصاحة، دراسة وتحليل، د/عبد الرازق أبو زيد، ص٥٨.

هل أراد أن يقسم (سر الفصاحة) إلى ثلاثة أبواب؟! إن كتاب (ابن سنان) ليس ككتاب العلامة (السكاكي)، كما أن عصر (الخفاجي) ليس كعصر صاحب المفتاح.

إن العلامة (السكاكي) قد ألّف (مفتاحًا للعلوم)، ومن هذه العلوم (علمي المعاني والبيان)، أما (ابن سنان) فلم يتطرق لهذا التقسيم؛ لأن العلامة (الزمخشري) هو الذي نص على علمي المعاني والبيان، و(السكاكي) ومن تبعه لم يولدا بعد.

كيف نتهم عالمًا توفي في القرن الخامس أنه لم يجر على منهج عالم آخر توفي بعده بقرنين.

أي نقد هذا الذي يمكن أن نتهم به العلامة (ابن سنان)، وأي مأخذ يمكن أن يؤخذ عليه من هذا النحو.

قبل أن نتهم (ابن سنان) في توزيع موضوعاته على أبواب كتابه وفصوله، كان يجب أولاً أن نقرأ جيّدًا (سر الفصاحة) لندرك الغرض وطريقة تأليفه ومنهجه، ثم يمكن لنا بعد ذلك أن ننقده وأن نعدد ما قصر فيه.

ومن الغريب أن يقول الأستاذ الفقي: "ونريد أن نخلص من هذا العرض إلى أن هؤلاء الذين سبقوا في الزمن (ابن سنان) ظهر للتطور الزمني والتدرج الطبعي أثر في تأليفهم، فمضى كلٌّ نحو الكمال شيئًا فشيئًا...وكان من الطبعي لو أن هذه السنة انتظمت أن ترى أثر التطور في مؤلَّف (الخفاجي)،..." [1].

[1] مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ص٣٥٣، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠.

والتطور من وجهة نظر أستاذنا كامل الفقي هو أن ينقسم (سر الفصاحة) عند (ابن سنان الخفاجي) إلى (معان وبيان وبديع) أو على الأقل أن يبوب لباب باسم (البديع) كما صنع أبو هلال العسكري.

ولعل هذا من العجب؛ لأن كتاب (ابن سنان) يبحث عن السر في الفصاحة والإعجاز، وكتاب (أبي هلال) نقدي، يتكلم فيه عن صناعتي (الشعر والنثر)، كما ذكر صاحبه، كما أن كتابي الشيخ (عبد القاهر) يتحدث فيهما عن النظم واللفظ والمعنى.

وكل كتاب من هذه الكتب الثلاثة وغيرها قبل (السكاكي) قد أُلِّف لغرض من الأغراض، وحاول صاحبه بشتى الطرق _ومنهم ابن سنان_ أن يثبته ويدافع عنه، وصنع كتابه، ووزع موضوعاته على أبوابه، بما يحقق له نظريته، وقد نجح هؤلاء ومعهم (الخفاجي) في (سر الفصاحة) كل النجاح.

ولو قرأ الأستاذ الفقي وغيره ممن نقد (ابن سنان) في اضطراب موضوعاته كتابَ (سر الفصاحة) جيّدًا من أول صفحة حتى آخر ورقة لتوصل إلى ما أراده (ابن سنان) من تأليفه كتابه.

أقول هذا وأكرره وأطيل فيه لأني أتعجب من هذا النقد الذي ظلم (ابن سنان).

أنا أعرف منهج كتابي وبحثي والغرض منه ومن تأليفه، كما أن (ابن المعتز) و(ابن سنان)، و(عبد القاهر الجرجاني) كل منهم وحده يعرف الغرض من تأليف كتابه على هذا النحو ودائمًا أي مؤلف يطرح سؤالاً ويحاول أن يجيب عليه من خلال ما يكتبه صاحبه، ولقد برع (ابن سنان) في منهجه،

وفي تبويبه واختياره للموضوعات التي يدرسها والتي تخدم مؤلَّفه والغرض منه، فلا يجب بعد هذا أن نلوم الرجل دون أن نفهم ماذا يريد من تأليف كتابه.

يقول (ابن سنان): "اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة، والعلم بسرها"[١].

هذا هو نص كلام (الخفاجي) في أول صفحة من كتابه، فكيف نحاول أن نبحث عن غرض آخر ونثبت صحته، ثم نصدق أنفسنا ونلوم الرجل أنه لم يلتزم بوضع الموضوعات البلاغية في الفصول والأبواب التي كان يجب أن توضع فيها، دون الاعتداد بفكر (ابن سنان، وغرضه الذي يبحث عنه.

[١] سر الفصاحة، ص٣.

الفصل الثالث
نقد ابن سنان في تكرار بعض الموضوعات البلاغية والرد عليه

الفصل الثالث

نقد ابن سنان في تكرار بعض الموضوعات البلاغية والرد عليه

يرى بعض الباحثين والأساتذة أن مما يؤخذ على (ابن سنان) تكراره لبعض المسائل البلاغية في أكثر من موضع، دونما داع، وتقديمه الفروع على الأصول[١].

فقد هاجم كثير من البلاغيين المحدثين العلامةَ (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة)، حيث اتهموه بالتكرار غير المبرر للمسائل البلاغية، ووضع بعض المسائل في غير أماكنها التي كان يجب أن تكون عليها.

وفي كلام هؤلاء الأعلام دليل واضح على أنهم قد قاسوا كتاب (سر الفصاحة) على غيره من الكتب بعده، وتجاهلوا مؤلف الكتاب نفسه.

يقول الدكتور/رجاء عيد: "أما عطاء (ابن سنان) بعد ضيقه الفائت، فمدعاة لتأففنا نحن منه، فنتيجة لاضطرابه في منهجه نراه يلحق الاستعارة بالفصاحة، ونراه يلحق التشبيه بالبلاغة، ولم يصل بعد إلى الطريق"[١].

[١] ينظر تفصيل ذلك، في: المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، دكتور/ عبد المنعم السيد الشحات، ص٣٥٢. والتصوير البياني، د/حفني شرف، ص١٣، والبلاغة بين عبد القاهر وابن سنان، ص٣١٥، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د/رجاء عيد، ص١٣، وسر الفصاحة دراسة وتحليل، د/عبد الرازق أبو زيد، ص٥٨.

ويقول الدكتور/علي عبد الرازق: "ومما يؤخذ على (ابن سنان) تكرار الكلام عن موضوع واحد في أماكن متعددة، فمثلاً تكلم عن الكناية في أكثر من مكان، ثم عاد وكرر الكلام عنها في أماكن أخرى"[٢].

وأقول: أما ما قاله الدكتور/ رجاء، فمن الواضح أنه بنى كلامه على خطأ، حيث إن (ابن سنان) لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة.

ويبدو أن الذي أحدث هذا اللبس هي عبارة (ابن سنان الخفاجي) التي نقلها عن كثير من البلاغيين المحدثين، يقول (ابن سنان): "إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة، لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه"[٣].

ويبدو أن هذا النص جعل كثيرًا من الدارسين المحدثين[٤] ينسبون لابن سنان خطأ قصر الفصاحة على اللفظ والبلاغة على اللفظ والمعنى.

---

[١] فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د/رجاء عيد، ص١٣، وسر الفصاحة دراسة وتحليل، د/عبد الرازق أبو زيد، ص٥٨، المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، دكتور/ عبد المنعم السيد الشحات، ص٣٥٢.

[٢] سر الفصاحة دراسة وتحليل، ص٥٨.

[٣] سر الفصاحة، ص٥٩.

[٤] على سبيل المثال: البلاغة تطور وتاريخ، د/شوقي ضيف، ص١٥٣، والبيان العربي، د/بدوي طبانة، ص٧٤، وفي البلاغة العربية، د/رجاء عيد، ص٨، ومن سمات التراكيب، د/عبد الستار زموط، ص٤، الإيضاح، تعليق وشرح د/محمد عبد المنعم خفاجي.

فمع أن هذه هي عبارة (ابن سنان) حقًّا، إلا أن تتبع مجموع كلامه يكشف عن حقيقة رأيه الذي يلتقي فيه مع سائر العلماء، وهو أنه لا فرق بين الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة.

فالفصاحة عند (ابن سنان) _كما نص هو_ "جزء وهما خليط لا ينقسم"[١].

بل إن (ابن سنان) يعطف بينهما عطف التفسير بالمرادف، كما هو واضح في قوله: "إن الناس قد أكثروا من الدلالة على شرف الفصاحة وعظم قدر البيان والبلاغة"[٢].

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد شادي: "الخطأ ذاته وقع مع أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين، عندما نسبوا إليه الحكم على البلاغة والفصاحة بالاختلاف... مع أن هذا قول ينسبه أبو هلال إلى بعض العلماء، ولا يمثل رأيه الشخصي، أما رأيه الذاتي الذي يمكن أن ينسب إليه باطمئنان فهو أن الفصاحة والبلاغة متفقان وأنهما معًا يتعلقان بالإبانة عن المعنى"[٣].

فابن سنان لم يفرق _في حقيقة الأمر_ بين الفصاحة والبلاغة، بل هو يلتقي مع سائر العلماء في عدم التفرقة بينهما، على خلاف ما ذهب إليه كثير من الدارسين المحدثين، ومنهم الدكتور/رجاء عيد، كما مر في نقده.

---

[١] سر الفصاحة، ص٦٠.

[٢] السابق، ص٩٣.

[٣] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص٢٧١، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.

أما موضع التشبيه والاستعارة في (سر الفصاحة) وفصله بينهما، وتقديمه للاستعارة على التشبيه، فليس مما يؤخذ عليه، ولا يحق لنا أن نعيبه في صنيعه هذا ما لم نستطلع كتابه، ونبحث عن تفسير لذلك، بدلاً من نقده والتسرع في الحكم عليه.

ولعل ما يفسر ذلك، هو (منهج ابن سنان في كتابه سر الفصاحة)[١]، فقد وضع شروطًا خاصة بالتأليف منفردة له.

ومن هذه الشروط: وضُع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا، ثم بدأ (الخفاجي) يفصل ذلك، فجعل من وضْع الألفاظ موضعها: " أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسد المعنى، وأن لا يكون الكلام مقلوبًا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه، ومنه حسن الاستعارة، وأن لا تقع الكلمة حشوًا، وأن لا يكون الكلام شديد المداخلة، وأن لا يُعبَّر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، وبالعكس، وحسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، ومنه: أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين، وأشباههم"[٢].

فشرط فصاحة الكلام المؤلَّف _كما نص ابن سنان_ "وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا"، ومن وضْع الألفاظ موضعها ما ذكره (ابن سنان).

---

[١] يراجع ذلك بالتفصيل، في: سر الفصاحة، ص٥٨، و المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، دكتور/ عبد المنعم السيد الشحات، ص٣٥٣.

[٢] سر الفصاحة، ص١١٠.

ومع أن المسائل البلاغية التي ذكرها تحت وضع الألفاظ موضعها _ومنها الاستعارة_ خليط من المعاني والبيان والبديع، إلا أنه مع _التأمل_ ندرك ما بينهما من صلة قوية.

فابن سنان قد أدرك أن هذه المواضع ليست أصلاً في الأسلوب، فالأصل في الكلام عدم التقديم، وعدم القلب، والحقيقة _لا الاستعارة_، وخلو الكلام من الحشو، وتجنب المعاظلة في الكلام، وهكذا...

ولذا نجده يقسم الاستعارة إلى حسنة قريبة، "وضعت في موضعها الملائم لها"، وقبيحة بعيدة "لم توضع في موضعها".

ولو عاودنا النظر في المسائل البلاغية "التي في مواضعها الملائم لها" لألفينا أن بينها تماسكا وتلاحمًا يجعلها وكأنها من واد واحد، وهي نظرة دقيقة من (ابن سنان) غير مسبوق بها.

وكان (ابن سنان) على صواب حين لم يدرج (التشبيه) مع (الاستعارة) في وضع الألفاظ في مواضعها)؛ وذلك لأن التشبيه ليس في غموض الاستعارة، ولذا نجده يفسر بُعد الاستعارة بقوله: "والبعيد المطرح يكون لبعده مما استعير له في الأصل"[١].

ويشترط في الاستعارة الحسنة "أن تكون أوضح من الحقيقة"[٢].

---

[١] سر الفصاحة، ص١٢٠.

[٢] السابق، ص١١٨.

لقد أدرك (ابن سنان) أن أسلوب الاستعارة أكثر غموضًا من التشبيه _على الأقل من وجهة نظره_ مما جعله يدرجها في وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا.

وعند دراسة (ابن سنان) للأوصاف التي تطلب من المعاني من حيث توجد في الألفاظ المؤلفة أدرك أن من هذه الألفاظ: الصحة، والكمال، والمبالغة، والتحرز مما يوجب الطعن.

ومن الصحة: (صحة التشبيه)، و(صحة التفسير)، و(صحة التقسيم).

فمنهج (ابن سنان) يعني: وضع الألفاظ موضعها في الاستعارة، حتى لا تبعد، وتغمض فتصبح قبيحة.

وصحة المعنى في التشبيه، ولذا كان يعقب على الشواهد بقوله: "فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد"[١].

وبتعبير آخر: فإنه لما كانت الاستعارة لا تحقَّق إلا بحذف أحد طرفي التشبيه، كان لابد أن توضع الألفاظ في الاستعارة موضعها حتى لا تبعد.

أما التشبيه فطرفاه موجودان، فلا يشترط فيه إلا صحة المعنى.

ولذلك انفرد (ابن سنان) بهذه الطريقة البارعة في منهجه.

أيحق لنا بعد هذا أن نتأفف منه _كما يقول د/رجاء عيد؟!.

لعل من الإنصاف أن نقول: إن الدكتور/رجاء هو الذي لم يصل إلى مغزى كلام (ابن سنان)؛ فلو قرأ هو وغيره من الباحثين المحدَثين (سر

---

[١] السابق، ص٢٤٦.

الفصاحة) جيِّدًا، واطلعوا على منهج (الخفاجي) في كتابه لما جاز لهم أن ينهالوا عليه بالنقد من غير علم.

لقد حكم بعض الباحثين _وهم كثر_ بالتكرار الواضح في كتاب (سر الفصاحة) ووضع الموضوعات في غير أماكنها، وهذا لم يكن سوى أنهم اكتفوا بتصفح الكتاب وقياسه على غيره من الكتب التي تلته، واعتباره كتابًا ألف لوضع المسائل البلاغية.

لم يحاول هؤلاء وغيرهم كدّ الذهن في قراءة هذا السفر العظيم الذي ألّفه صاحبه من دون أن يكون له نظير في التأليف البلاغي قبله أو بعده.

لقد اتهموه بالتكرار، مع أنه قد وضع كل شيء في مكانه كأفضل ما يكون، وهم أنفسهم من اتهموا الشيخ (عبد القاهر) بالتكرار وسوء التنظيم، فحكموا على الرجلين ولم يكلفوا أنفسهم قراءة الكتابَين قراءة جيّدة؛ حتى يتسنى لهم الحكم له أو عليه.

أما الرد على الدكتور/ علي عبد الرازق حين قال "ومما يؤخذ على (ابن سنان) تكرار الكلام عن موضوع واحد في أماكن متعددة، فمثلاً تكلم عن الكناية في أكثر من مكان، ثم عاد وكرر الكلام عنها في أماكن أخرى".

فأقول: أما الموضع الأول الذي ذُكرت فيه الكناية فهو: "وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا... ومنه حسن الكناية"، والاستعارة، كما ذكرتُ منذ قليل.

فلما كانت الكناية: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه"[١] _احتيج فيها أن توضع الألفاظ في موضعها، ولذا نجد أن (ابن سنان) يقول عنها في هذا الموضع: "ومن وضع الألفاظ في مواضعها: حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح"[٢].

وعد إلى عبارته: في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، لتدرك مرامه، فإذا كانت الكناية في موضع لا يحسن فيه التصريح فهي كناية حسنة، وهي من وضع اللفاظ في مواضعها.

وأما الموضع الثاني الذي تحدث فيه (ابن سنان) عن الكناية، فذلك وهو بصدد الحديث عن شروط الفصاحة والبلاغة _أيضًا_ حيث جعل من شروط فصاحة الكلام التي تختص بالتأليف وتنفرد له عن فصاحة الكلمة: "أن يكون معنى الكلام واضحًا ظاهرًا جليًّا"[٣].

واستلزم ذلك منه أن يذكر الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام، ويفصل الكلام في ذلك، وعاب أستاذه أبا العلاء؛ لاستحسانه الإلغاز وإكثاره منه.

ثم شرع في الحديث عن الكناية تحت اسم (الإرداف والتوابع)، وجعلها من نعوت الفصاحة والبلاغة التي تحقق له شرط الوضوح.

وليس يعني ذلك أن المسائل البلاغية الأخرى لا تحقق له (الإيضاح)، كيف وقد أشار إلى ذلك في أكثر كتابه، ولكنه أدرك أن (الإرداف والتوابع)

---

[١] سر الفصاحة، ص٢٤٦، وبغية الإيضاح: ٣/ ١٥٦.

[٢] سر الفصاحة، ص١٦٣.

[٣] سر الفصاحة، ص٢٢٠.

_كما أطلق عليه، والتمثيل يحققان له الوضوح والمبالغة بطريقة ظاهرة، فهما من نعوت الفصاحة والبلاغة، وليس من شروطها، حتى لا يختلط هذا على البعض.

ولعل مما يؤكد هذا أنه عرّف (الإرداف والتوابع) بقوله: "ومن نعوت البلاغة والفصاحة: أن تراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة؛ فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع"[١].

وبعد ذلك بقليل يقول: "ومن نعوت الفصاحة والبلاغة: أن يراد معنى فيوضح بألفاظ تدل على معنى آخر وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود"[٢]، وهذا هو التمثيل.

ثم يعلق عليهما بقوله: "فالغرض إيضاح المعنى وبيانه"[٣].

وعلى هذا فابن سنان عندما ذكر الكناية في الموضع الأول كان ذلك؛ لأنه أدرك أن "من وضع الألفاظ في مواضعها: حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح"[٤].

وحين كرر الحديث عنها بذكر (الإرداف والتوابع) استشهد بها لتحقيق الوضوح في الفصاحة والبلاغة، ولذلك ذكر معه التمثيل، وهو أكثر المسائل البلاغية التي تحقق الوضوح.

---

[١] سر الفصاحة، ص٢٢٩.

[٢] السابق، ص٢٣٢.

[٣] السابق، الصفحة نفسها، و المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، ص٣٥٧.

[٤] سر الفصاحة، ص١٦٣.

كما أن (ابن سنان) أدرك في الموضع الأول أن المواضع التي لا يحسن فيها التصريح تجب فيها الكناية، أما الموضع الثاني: "فالإرداف والتوابع" عنده من النعوت، فالبحتري يصف القلب بأنه مكمن اللب والرعب والحقد...وهكذا.

يقول (ابن سنان): "ومن هذا الفن من الإرداف قول أبي عبادة[١]:

فأوجزته أخرى فأضللت نصله بحيث يكون اللب والرعب والحقد لأنه أراد القلب فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له وعدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه وكان ذلك أحسن ؛لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دل على شرفه وتميزه عن جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه وأنه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه. ولو قال: أصبته في قلبه لم يكن في ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف.

ومما يجرى مجرى قول أبي عبادة قول غيره[٢]:

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

ولو أن الدكتور عبد الرازق استطلع كتاب (سر الفصاحة) وتأمل منهج صاحبه لما كان هناك مجال لنقده وشن الحملات على بلاغي، تُهْمته الوحيدة أنه حاول أن يأتي بمنهج منفرد وطريقة جديدة، فكان ذلك سببًا لتصدي بعض النقاد له، لا لشيء إلا لأنهم عجزوا عن فهم مراده، فراحوا يتبارون في نقده.

---

[١] ديوان البحتري: ٢/ ٧٤٤، الموازنة: ١/ ٣١٦، معاهد التنصيص: ٢/١٧٣.

[٢] البيت لعمر بن معدي كَرِب في ديوانه، ص١٦٢، ومعاهد التنصيص: ٢/ ١٧٢.

لقد تكلم (ابن سنان) عن الكناية في موضعين، فاتُّهم بخلل في منهجه، وخطأ أدى إلى تكراره بعض الموضوعات في أكثر من مكان.

وكرر الشيخ (عبد القاهر) حديثه عن الاستعارة والتشبيه في أكثر من مكان، فاتهم أيضًا بالتكرار ونسي هؤلاء جميعًا أن سبب التكرار - الموهوم - هو تكرار مقصود يخدم خطة العالِمين الكبيرين وليس التكرار _إن كان تكرارًا_ مذمومًا دونه، بل أحيانًا يتطلب المنهج ذلك لإثبات قضيته والدفاع عنها، كما فعل (ابن سنان الخفاجي) في (سر الفصاحة).

الفصل الرابع
نقد إقحام ما ليس من البلاغة في البلاغة

الفصل الرابع

نقد إقحام ما ليس من البلاغة في البلاغة

لقد اتهم بعض البلاغيين (ابن سنان الخفاجي) أنه ألحق بالبلاغة ما ليس منها، وأدخل فيها مسائل ليست فيها؛ بسبب عدم قراءة كتاب (سر الفصاحة) والاطلاع على غرض صاحبه من تأليفه، وليس هذا بعجيب؛ فقد تكرر نفس المأخذ مع العلامة (السكاكي) بعد ذلك.

ولو أنصفنا العالمَيْن لكان ما فعلاه مدحًا لهما، لا مما يؤخذ عليهما.

وسبب هذا الخطأ الذي وقع فيه من نقد منهج (ابن سنان الخفاجي)، ومن بَعدِه (السكاكي) هو عدم معرفة غرض العالمَيْن من تأليف كتابيهما، والمنهج الذي يتوجب عليهما اتباعه للدفاع عن القضية التي من أجلها ألّف كلا منهما كتابه.

إن المنصف يجد منهج (ابن سنان) لم يُسْبَق به _كما أشرت من ذي قبل_، ولم يقلد فيه أحد، ولنتركه يعرض خطته التي أشار فيها إلى حديثه عن الأصوات والحروف والسبب في ذلك، يقول (ابن سنان): "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذًا من أحكام الأصوات، والتنبيه على حقيقتها، ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفًا متميزة، ونشير إلى طرف من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها، ثم نتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من الحروف، وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل، وهل اللغة في الأصل مواضعة أو توقيف، ثم نبين هذا كله وأشباهه مائية الفصاحة.

لا نخلى ذلك الفصل من شعر فصيح وكلام غريب بليغ، يتدرب بتأمله على فهم مرادنا؛ فإن الأمثلة توضح وتكشف، وتخرج من اللبس إلى البيان، ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح"[١].

ثم أحس العلامة (ابن سنان) ما سيدور حول مؤلفه من نقد بسبب ذلك، فقال: "فإذا أعان الله تعالى ويسر تمام كتابنا هذا كان مفرداً بغير نظير من الكتب في معناه.

وذلك أن المتكلمين وإن صنفوا في الأصوات وأحكامها، وحقيقة الكلام ما هو، فلم يبينوا مخارج الحروف، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها. وأصحاب النحو وإن أحكموا بيان ذلك فلم يذكروا ما أوضحه المتكلمون الذي هو الأصل والأسُّ، وأهل نقد الكلام فلم يتعرضوا لشيء من جميع ذلك وإن كان كلامهم كالفرع عليه.

فإذا جمع كتابنا هذا كله وأخذ بحظ مقنع من كل ما يحتاج الناظر في هذا العلم إليه =فهو مفرد في بابه غريب في غرضه"[٢].

وهذه هي المرة الوحيدة التي يتحدث فيها (ابن سنان) عن نفسه وعن كتابه، فقد كان في كتابه أمينًا ينسب الآراء لأصحابها، متواضعا في تعامله مع خصمه، لا تمر الصفحات إلا ويستعطف قارئه في قبول العذر له، لم يكن بالمحدث عن نفسه أو المعلن عن بضاعته.

---

[١] سر الفصاحة، ص٥.

[٢] سر الفصاحة، تح: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، ص٤، ٥.

لعلها المرة الأولى والأخيرة التي يتحدث فيها (الخفاجي) عن كتابه، حين قال: "فهو مفرد في بابه، غريب في غرضه".

نعم، هو مفرد في بابه، فلم يؤلف أحدٌ كتابًا بحثَ فيه عن السر في فصاحة القرآن وإعجازه كما ألّف (ابن سنان).

ولم يفرد أحد كتابًا بتفصيل الأسباب التي تجعل الكلام فصيحًا خاليًا من شوائب اللغة كما صنع هو.

كما إنه غريب في غرضه؛ حيث بدأه بالحديث عن الصوت ثم الحرف ثم الكلمة والكلام والمعاني وأغراضها.

هكذا قسم (ابن سنان) كتابه كأحسن ما يكون، وكان يعتقد أن تأليفه هذا سيمدحه كل من يقرأه، لكن بعض البلاغيين تركوا اللباب، وتعلقوا بالقشور، وهاجموه في إقحام ما ليس من البلاغة _من وجهة نظرهم_ في البلاغة.

ولعل أول من أثار هذه القضية وانتقده فيها هو العلامة (ابن الأثير) في سفره العظيم (المثل السائر)، حيث نبّه من أول سطر في تأليفه أنه لم يعجبه مِن كُتب البلاغة سوى كتابين، أحدهما (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي، وكتاب الموازنة للآمدي، ولنتركه يعرض ذلك، حيث يقول:

"وبعد؛ فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام، وقد ألَّف الناس فيه كتبًا، وجلبوا ذهبًا وحطبًا، وما من تأليف إلّا وقد تصفَّحت شِينَه وسِينَه[1]، وعلمت غَثَّه وسَمِينَه، فلم أجد ما ينتفع يه

[1] يقول المحقق: يريد أنه تصفَّحه كله، حاليه وعاطله، ومعجمه ومهمله.

في ذلك إلّا كتاب "الموازنة" لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب "سر الفصاحة" لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولاً، وأجدى محصولاً،وكتاب (سر الفصاحة) وإن نبَّه فيه على نكتٍ منيرة، فإنه قد أكثر مما قلَّ به مقدرًا كتابه، من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها، مما لا حاجة إلى أكثره، ومن الكلام في مواضع شذَّ عنه الصواب فيها"[١].

لقد بدأ (ابن الأثير) كتابه _كما نرى_ بنقد (ابن سنان وكتابه)، وأن ما ذكره صاحب (سر الفصاحة) في كتابه يُعد سقطة من سقطات الكتاب التي كانت سببًا في قلة مقدار الكتاب وعدم الاستفادة منه.

وقد رد محقق الكتاب على ذلك، حيث يقول الدكتور/ بدوي طبانة: "لا عبرة بهذا النقد؛ لأن (الخفاجي) في كلامه على الأصوات وعلى الحروف ذكر منها ما يؤلف وما لا يؤلف، ولذلك من بُعد الأثر في وقع الكلام على السمع والذوق، وتقديره عند أهل صناعة البيان ما لا يخفى، وكلام (الخفاجي) على اللفظة المفردة من أمتع الدراسات النقدية، وهو أصل لما كتب البلاغيون في فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام في مقدمات كتب البلاغة، بل إن (ابن الأثير) نفسه قد درس الكلمة المفردة وصفاتها في هذا الكتاب، وأفاد كما أفاد غيره من تلك الدراسة المنظَّمة التي مهد سبيلها الخفاجي"[٢].

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت: ٦٣٧هـ)، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة: ١/ ٣٤. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، هامش (٢): ١/ ٣٤.

على أن (ابن سنان) _كما قال أستاذنا العلامة، الدكتور/محمد شادي_ قد ذكر تفسيرًا مقنعًا لحديثه عن الأصوات والحروف كمقدمة للحديث عن الفصاحة، وذلك حين قال: "لأن حاجة الناظر في علم الفصاحة والبلاغة لمعرفة مخارج الحروف وأوصافها أمر ضروري؛ لأن الكلام ينتظم منها"[١].

و"لعل ما يمكن أن نوجهه لابن سنان _كما يقول أستاذنا_ ليس مجرد إقحامه للأصوات والحروف كمقدمة للفصاحة _كما يدعي البعض_، ولكن لأنه لم يحاول أن يربط ربطًا فعّالاً بين خصائص الأصوات والحروف، وبين الفصاحة والبلاغة بما يبرر ذلك الاهتمام"[٢].

ويقول أحد الباحثين المحدَثين: "درس (ابن سنان الخفاجي) تلميذ (أبي العلاء المعري) البلاغةَ على أساس فصاحة الأسلوب من جهة الخصائص الصوتية للألفاظ، وبما تعكسه من المعاني والآثار في نفوس السامعين،وكان كتاب (سر الفصاحة) عمدة الباحثين في هذا الموضوع"[٣].

ونعود إلى كلام (ابن الأثير) الذي تحامل فيه _كعادته_ على (ابن سنان)، فإنه مع علمه الغزير وطريقته الأدبية الرائعة في تناوله للمسائل البلاغية في سفره العظيم (المثل السائر)، إلا أني لست أعلم تفسيرًا لتحامله على (ابن سنان) الواضح في كل كتابه.

---

[١] البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، أ.د/ محمد شادي، ص١٦.

[٢] السابق، الصفحة نفسها.

[٣] البحث البلاغي والنقدي بين ابن الخطيب الرازي وابن حمزة العلوي، عرض وتحليل_موازنة_نقد، دكتوراه، الباحث/ محمد حسين إبراهيم الهايج، ص١٦٠، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة، رقم (١٤٨٢).

يقول أستاذنا الدكتور/محمد شادي: "ولست أدري إذا كان هذا هو موقف (ابن الأثير) من كتاب (سر الفصاحة) فلماذا اعتبره أحد كتابَيْن لم ينتفع بغيرهما، كما يزعم"[١].

وقد كان لكلام (ابن الأثير) أثر عند بعض الباحثين، فيقول أ/كامل الفقي: "هذا الذي تناوله من بحوث وأطال فيه الحديث، لم يكن من مباحث الفصاحة والبلاغة في شيء، ولم يكن الكلام عن الإبانة فيهما محتاجًا إليه في قليل ولا كثير"[٢].

وحاول الأستاذ الفقي أن يفسر ذلك، فراح يقول: "ونريد أن نميط اللثام عن السر في طرقه هذه الموضوعات، والسبب الذي حداه إلى الحديث عنها، وكان جديرًا بها أن تكون موضوع بحث في علم آخر، كفقه اللغة أو الأصول، أو القراءات أو الكلام.

لقد يتراءى لنا بعد أن بحثنا في تاريخ (الخفاجي) فوجدناه من المتكلمين أنه ميال إلى هذه النزعة في البحث لمجاراة ميله وطبعه، وتلبية نداء الطبيعة الماثلة فيه، وقد يكون دليلاً على ذلك ما نشاهده في كثير من ثنايا حديثه، فقد لا يغفل عن شرح أمور كلامية، لتقرير مذاهب هي من صميم الكلام.

أرأيت إليه وقد تعرض لبيان وجه الإعجاز في القرآن، فذهب إلى أنه راجع إلى صرف العرب عن محاكاته، متتبعًا في ذلك مذهب النظام، ومن لف لفه؟.

---

[١] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص٢١٦، ط١٤١٧هـ.

[٢] مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ١٣٦٢هـ، صفر، مجلد (٤): ٢/ ٨٦.

على أن (الخفاجي) حين جارى من سبقه من المتكلمين عن وجوه الإعجاز استتبع ذلك منه أن يلفت نظره إلى ما كان شائعًا بينهم عن مشكلة خلق القرآن، وذلك اقتضى منه بالطبع أن يبحث في الكلام والمتكلم والأصوات والحروف، فهو من هذه الناحية مضطر إلى الخوض في هذه الأحاديث، وإلى معالجتها بهذه التوسعة وذلك الإسهاب"[١].

والأستاذ الفقي قد حاول تبرير إقحام (الخفاجي) للأصوات والحروف فراح يستند على أنه من المتكلمين، وأنه يدافع عن إحدى القضايا آنذاك، على ما ظهر من كلامه.

ولو أنصف الأستاذ الفقي _وهو كاتب أقدر له أسلوبه وجهده_ لرد ذلك لمنهج (ابن سنان) وطريقته.

أما العلامة (ابن الأثير) فقد وقع في كتابه فيما تهم به (ابن سنان)، فبينما ينقد (الخفاجي) في حديثه عن الصوت والحرف واللغة، نجد (ابن الأثير) يخصص صفحات للحديث عن علم الصرف والنحو، فيقول: " وأول من تكلَّم في النحو أبو الأسود الدؤلي، وسبب ذلك...الخ"[٢].

ثم يفصل القول في الفرق بين الصرف والنحو، ويتبع ذلك بفصل عن علم اللغة[٣].

---

[١] ابن سنان وسر الفصاحة، الأستاذ/كامل الفقي، مجلة الأزهر، ١٣٦٢هـ، صفر، مجلد (٤): ٢/ ٨٦.

[٢] المثل السائر: ١/ ٤٢.

[٣] ينظر: السابق: ١/ ٥٠ وما بعدها.

فإذا صح أن ما ذكره صاحب (المثل السائر) يخدم منهجه _وهو لاشك صحيح_ فلماذا عاب على (ابن سنان) حديثه عن الصوت والحرف للسبب ذاته؟!.

فلعل ما يجب أن يقال حول هذا المأخذ الذي أخذه بعض العلماء _ومنهم ابن الأثير_ على (ابن سنان) من إقحامه ما ليس من البلاغة في البلاغة كحديثه عن الأصوات، أقول: ليس هذا مما يجب أن يؤخذ عليه، حيث إنه أحد الركائز التي بنى عليها كتابه (سر الفصاحة)، وكان لابد من الحديث عن الأصوات والحروف والكلمة والكلام حتى يمكن له بعد ذلك أن يفصل القول عن مباحث الفصاحة والبلاغة، كما نص هو على ذلك، حين قال: "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذًا من أحكام الأصوات..."، وقد علل ذلك، فقال: "لأن الكلام ينتظم منها".

لقد كان (ابن سنان) واضحًا في وضع خطته ومنهجه الذي سيسير عليه من أول سطر في كتابه، وقد ذكر سبب اختياره لبعض المباحث والأبواب التي ربما ظن البعض أنها خارجة عن علم البلاغة، ثم ذكر السبب في وجودها في كتابه (أو في إقحامها _على حد قولهم)، فهي ليست فضلة وزائدة وخارجة عن كتابه، ويجب أن تلفظ وأن تحذف من كتابه _كما ظن البعض، بل هي أصول بنى عليها منهجه.

ولن يظهر ذلك إلا لمن يقرأ كتاب (سر الفصاحة) جيِّدًا من أوله وحتى آخر سطر من سطور الكتاب.

الفصل الخامس
نقد ابن سنان في بعض آرائه البلاغية
والرد عليه

الفصل الخامس
نقد ابن سنان في بعض آرائه البلاغية
والرد عليه

لم يترك بعض البلاغيين شيئًا لابن سنان في كتابه (سر الفصاحة) إلا قاموا بنقده وتتبعه، فبعدما قام بعضهم بنقد المنهج العام للكتاب، وتوزيع المسائل والموضوعات على هذا المنهج، وتكراره للحديث عن بعض الموضوعات البلاغية في أكثر من مكان، وإقحامه ما ليس من البلاغة في البلاغة، أقول: بعد هذا كله لم يكتفوا بنقد كتاب (سر الفصاحة)، وإنما شنوا عليه وعلى صاحبه حملة تقلل من تأليف كتاب (سر الفصاحة) وتقلل من قيمته البلاغية والنقدية.

حتى إن بعض الباحثين اعترض على اسم الكتاب، فلم يرق بعضهم أن يسمي (ابن سنان) كتابه: (سر الفصاحة)، حيث يقول د/ عبد السلام عبد الحفيظ: "وكتاب (سر الفصاحة) كان جديرًا به أن يسمى (سر البلاغة) بناء على أفكار صاحبه فيه، وموضوعاته التي ضمنها إياه"[١].

وأرى أن تسمية الكتاب بسر الفصاحة أجدى وأدق من تسميته بـ(سر البلاغة)؛ وذلك لاهتمام مؤلِّفه بالحديث عن الأصوات والحروف والكلمات المفردة، حيث شغل حديثه عنها قدرًا كبيرًا.

---

[١] مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية، د/عبد السلام عبد الحفيظ، ص٢٤٤.

وقد تطرق (ابن سنان) إلى شرح فضل الفصاحة، بمنطق خلاب وأسلوب أخاذ... فكان في بيانه العالي وأسلوبه الرفيع دليل على شرف الفصاحة وكرم منزلها من النفوس[١].

وكما قلنا فلم يفرق (ابن سنان) بين الفصاحة والبلاغة، فكلامه عن الفصاحة لا يتميز عن الكلام عن البلاغة إلا في موضع الفرق بينهما، أما ما سوى ذلك فعام لا يختص، وخليط لا ينقسم، فمن تتبع كلام (ابن سنان) يجده يُعرف الفصاحة بقوله: هي" عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار"[٢].

ويعرف البلاغة بأنها عبارة عن حسن الألفاظ والمعاني، وهو بذلك يكون قد عرف الفصاحة بما تدل عليه البلاغة، فلا فرق بينهما، فهو لا يميز بينهما إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما، بدليل أنه في أكثر من موضع يقول: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة..." [٣].

ولذا فإن (ابن سنان) لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة حتى يؤخذ عليه ذلك _كما قال الدكتور طبانة[٤].

فكما استدرك بعض البلاغيين عليه الخطأ في التسمية استدركوا عليه أيضًا تفريقه بين الفصاحة والبلاغة، وقد وضحت عدم صحة ذلك في أكثر من موضع.

---

[١] مجلة الأزهر، ١٣٦٢هـ، ص٨٨ بتصرف.

[٢] سر الفصاحة، ص٩٣.

[٣] سر الفصاحة، ص٢٠٥، ٢٢٠، ٢٢٩.

[٤] البيان العربي، د/ بدوي طبانة، ص١٧٤.

ونظرًا لاهتمام (ابن سنان) بالفصاحة فقد وضع شروطًا عدة لفصاحة الكلمة، وأخرى لفصاحة الكلام.

أما فصاحة الكلام، فيرى (ابن سنان) أنه يجب أن يوجد في اللفظة المفردة ثمانية عناصر: "أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج، وأن تجد للفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وأن تكون الكلمة غير وحشية ولا عامية، وأن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة، وأن لا تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، وأن تكون الكلمة غير كثيرة الحروف، وأن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي"[١].

يقول أستاذنا الدكتور/أحمد موسى في كتابه القيم (الصبغ البديعي): "وإن ابن سنان أول من فصل بين شروط فصاحة اللفظة المفردة، والألفاظ المركبة على هذا الوجه المرتب المنظم، حتى كان صنيعه أقرب الموارد للمتأخرين، وأقوى الدعائم التي بنوا عليها مقدمة علوم البلاغة"[٢].

لكن يبدو أن هذا الكلام لم يرق الأستاذ كامل الفقي في مجلة الأزهر، فراح يقول: "إن حديث (ابن سنان) عن شروط الفصاحة والبلاغة مبهم معيب، حيث لم يفصل بين نصيب كل منهما، بل اكتفى بقوله: (ومن شروط

---

[١] سر الفصاحة، ص٦٣: ٨٩.

[٢] الصبغ البديعي، ص٢٠٨، دار الكاتب العربي.

الفصاحة والبلاغة كذا)، ويرى أ/ الفقي أن ما فعله (ابن الأثير) كان أدنى من التحقيق وأقرب إلى التوضيح وإزالة اللبس"[١].

نقد شروط الفصاحة:

وقد حاول البعض _وهم كثر_ نقد هذه الشروط التي وضعها (الخفاجي)، ولعل أول من فعل ذلك العلامة (ابن الأثير) _كعادته في تتبع (الخفاجي).

مسألة (تباعد المخارج)

ومن الشروط التي دار حولها جدل طويل، مسألة (تباعد المخارج)، فابن سنان يشترط في اللفظة حتى تكون فصيحة أن تكون من حروف متباعدة المخارج، وحجته في ذلك "أن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة"[٢].

وقد بيَّن (الطوفي البغدادي) أن توجيه (ابن سنان) مبني على قاعدة لطيفة، وهى أن الحواس الخمس بمنزلة الجواسيس للنفس، وقد علمنا بالطبع أن النفس ترتاح للأخبار المستغربة، وتمل وتمج الكلام المعاد، ولاشك أن الحروف المتقاربة في معنى المعادة"[٣].

---

[١] مجلة الأزهر، بحث نشره الأستاذ/ كامل الفقي، ١٣٦٤هـ، ص٣٦٨.

[٢] سر الفصاحة، ص٦٣.

[٣] الإكسير في علم التفسير، للطوفي البغدادي، ص٧٣، تح: عبد القادر حسين.

وقد اعترض (ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) على شرط الخفاجي) السابق من وجوه:

١_ إن معظم ألفاظ اللغة العربية دائرة على ذلك؛ فلا حاجة للنص عليه.

٢_ لو أراد الناظم أو الناظر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ...، لطال الخطب في ذلك وعَسُرَ.

٣_ إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ، وقيل لك: ما تقول في هذه اللفظة أحسنة هي أم قبيحة؟ فإنك تفتي بحسنها أو قبحها على الفور، ولا تنتظر حتى تعتبر مخارج حروفها، كما يقول (ابن سنان).

٤_إن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج، فحسن الألفاظ إذن ليس معلومًا من تباعد المخارج، وإنما عُلِمَ قبل العلم بتباعدها، وكل هذا راجع إلى حاسَّة السمع.

٥_القاعدة قد شذَّ عنها شواذ كثيرة؛ لأنه قد يجيء في المتقارب من المخارج ما هو حسن رائق.

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك، وتسمَّى ثلاثتها "الشجرية"، وإذا تراكب منها شيء من الألفاظ جاء حسنًا رائقًا. فإن قيل "جيش" كانت لفظة محمودة، أو قدمت الشين على الجيم فقيل "شجي" كانت أيضًا لفظة محمودة.

كما أنه يجيء في المتباعد شيء قبيح، ولو كان التباعد سببًا للحسن، لما كان سببًا للقبح، مثل (ملع) مع أنها لو عكست لأصبحت (علم)، فصارت حسنة"[١].

الرد على حجج ابن الأثير :

ويمكن الرد على حجج (ابن الأثير)؛ ففي قوله: "إن معظم ألفاظ اللغة دائرة على ذلك"، فهذا ما لا يغيب على (ابن سنان)، ولا يتناقض مع النص عليه.

وفي قوله: "لو أراد الناظم أو الناظر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ...، لطال الخطب في ذلك وعَسُرَ"، فهذا لم يقصده (ابن سنان)، والألفاظ الحسنة هي أكثر اللغة، ويقع عليها القائل دون صعوبة.

وقوله: "إن الحكم على الكلمة بالحسن أو القبح لا يتوقف على قبح المخارج"، فهذا صحيح؛ لأن ذلك يرجع إلى السمع والذوق، ولكن عند السؤال عن سبب الثقل فسيكون الجواب: في مخارج الحروف وصفاتها، وقد بيَّن (ابن الأثير) أن الثقل في (مستشزرات) ناشئ من الشين التي قبلها تاء وبعدها زاي[٢].

---

[١] ينظر تفصيل ذلك في: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، القسم الأول، ص٢٠٦، ٢٠٧، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، وسر الفصاحة، ص٦٣، المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، ص٤٩.

[٢] المثل السائر، ص٢٠٥، ٢٠٦.

وقوله: "إن حسن الألفاظ يُعلم قبل العلم بتباعد مخارجها" قول بدهي، لكن لا يحتج به؛ لأن (ابن سنان) لم يجعل علة التنافر هي العمل بتباعد المخارج، بل نفس التباعد، وذلك مدرك لكل سامع[١].

تعليق أستاذنا الدكتور/محمد شادي

ويرى أستاذنا الدكتور/محمد شادي أن (ابن سنان) يسجل ملاحظة قيمة تذكر له، عندما ذكر هنا "أن لحروف الحلق مزية في القبح، إذا كان التأليف منها فقط، يعني أن الألفاظ المكونة من حروف الحلق لاشك في قبحها، وهذا حكم مطرد لا سبيل إلى نقده، وقد سجل (ابن جني) هذه الملاحظة"[٢].

وقول (ابن الأثير): "إن حسن المتباعد، وقبح المتقارب قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة" =لايهدم ما ذكره (ابن سنان)؛ لأنه لم يقل إن كل متباعد في المخارج حسن، وكل متقارب قبيح، إنما هذه القاعدة مبنية على الأغلب والأعم، "فالمدعى هو الغلبة، كما هو شأن العلامات، لا اللزوم"[٣].

وإذا كانت البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فما المانع أن يقتضي المقام أحيانًا ثقل بعض الألفاظ _إن صح التعبير_ وسواء أكان هذا الثقل ناشئًا عن تباعد المخارج، أو قربها، فإني أرى أن المُعوَّل عليه في ذلك هو (الذوق) وحده، وهذا أمر عسير لا يؤتى لكل أحد، بل يحتاج إلى الدربة والممارسة.

---

[١] عروس الأفراح للسبكي، ضمن شروح التلخيص: ١/ ٨٢.

[٢] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذنا الدكتور/محمد شادي، ص٢٩١، ٢٩٢.

[٣] عروس الأفراح للسبكي: ١/ ٢٨١، ومقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د/ الشحات أبو ستيت، ص٥٢_٥٥.

فإذا اقتضى المقام أن تأتي الألفاظ ثقيلة بعض الشيء، وحكم الذوق بهذا الثقل، فالكلمة _لا محالة_ ثقيلة استدعاها الحال، واقتضاها المقام.

والواجب أن يكون هذا الحكم من خلال مكان الكلمة في سياقها، وما أضافته للمعنى بهذا الثقل[١].

تعليق التفتازاني :

ولذلك نجد العلامة التفتازاني يدرك ذلك، حيث يرى أن التنافر مرجعه إلى الذوق وحدَه، وعبارته في ذلك هي: "إن كل ما يعده الذوق ثقيلاً، متعثر النطق به، فهو متنافر، سواءًا كان من قرب المخارج، أو بعدها، أو غير ذلك"[٢].

ومما يؤكد ذلك، ما ذكره العلامة العلوي في الطراز؛ حيث نفى بشدة أن حسن الألفاظ وقبحها يرجع إلى تقارب الحروف، أو بعدها[٣].

رأي أستاذنا الدكتور/محمد موسى في سبب التنافر

ويقول أستاذنا الدكتور/محمد موسى: "وأبرز سبب يذكر لتنافر الحروف هو قرب مخارجها، أي أن تكون حروف الكلمة المتتابعة تخرج من مخارج قريبة جدا، وهذا -كما قالوا- يشبه مشي المقيد، أي أن أعضاء النطق بعد

---

[١] ينظر تفصيل ذلك والشواهد عليه، في: المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، ص٥٢.

[٢] شرح مختصر المعاني للتفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني: ١/ ١٤.

[٣] الطراز، ص٥٤.

الفراغ من إخراج الصوت يضطرها الحروف الثاني إلى أن تعود إلى مخرج قريب جدا من الأول، وكان يسهل عليها أن تنتقل إلى مخرج أبعد، كأن تثب من الحق إلى اللسان مثلاً...وقد عرضنا لهذه المسألة في دراستنا للإعجاز البلاغي، وناقشنا هذه الأصول مناقشة مبسوطة، رجعت بالمسألة إلى حكم الذوق"[١].

رأي الشيخ (المراغي):

ويقول الشيخ (المراغي): "تنافر الحروف: صفة في الكلمة ينجم عنها ثقلها على اللسان وصعوبة النطق بها، ولا ضابط لذلك غير الذوق السليم والشعور الذي ينشأ من مزاولة أساليب البلغاء"[٢].

تعليق آت بازاري في حاشيته علي ضابط التنافر

وفي حاشية آت بازاري، يقول صاحبها: "والضابط هاهنا أن طريق معرفة المتنافر من غيره هو الذوق السليم، والطبع المستقيم، لا غير، فهذا الذي ينبغي أن يعتمد ويعول عليه"[٣].

ومع أني أكاد أجزم بما اتفق عليه أكثر البلاغيين بمعرفة سبب التنافر عن طريق الذوق السليم، والطبع المستقيم، لكن هناك أسبابًا لذلك، كما

---

[١] خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى، ص٣٢، مكتبة وهبة، ط٣.

[٢] علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي، ص١٥، وحاشية يسن على مختصر المعاني، ص١٤، وحاشية مغربية على مختصر المعاني، ص١٥.

[٣] حاشية آت بازاري على مختصر المعاني، لوحة رقم ٢٨، مخطوط تحت رقم ٥٥ بلاغة، ٢٠/ ١٧٨٦ بلاغة.

نص على ذلك العلامة (ابن سنان)، ولعل أقربها إلى الصحة هو (قرب المخارج)، وليس هناك أي معارضة بين ما قاله (الخفاجي) وما استقر عليه البلاغيون.

نقد طول الكلمة

من شروط الفصاحة التي دار حولها جدل طويل، قول (ابن سنان): "والسابع: مما قدمناه أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت، وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة.

ومن هذا النوع أيضاً قول أبي تمام[١]:

فلأ ذربيجان اختيال بعد ما كانت معرس عبرة ونكال

سمجت ونبهنا على استسماجها ما حولها من نضرة وجمال

فقوله: فلأذربيجان كلمة رديئة؛ لطولها وكثرة حروفها، وهي غير عربية، ولكن هذا وجه قبحها، وكذلك قوله في البيت الثاني: (استسماجها) رديء؛ لكثرة الحروف، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الألفاظ إلى الشاذ النادر"[٢].

رأي أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي في قبح طول الكلمة

وقد أورد أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي سببًا يخرج أبي تمام من عيب طول الكلمة هنا، حيث يقول: "ولأن (أذربيجان) كلمة ثقيلة أرى أن أبا

---

[١] ديوان أبي تمام: ٣/ ١٣٢.

[٢] سر الفصاحة،

تمام معذور فى استعمالها؛ إذ ليس لها مرادف يُغنى عنها حتى يترك ثقلها إلى خفة هذا المرادف، وإنما يعاب الشاعر حين يجد المتسع الفسيح ثم لا يتجه إليه، أما حين يتحين فقد ضاق شبر عن مسير... وبعد، فمن قرأ ما جاء في كتب المتأخرين عن فصاحة الكلام وبلاغة القول، ومقتضيات المقام، فليعلم أنها أثر بارز من آثار (ابن سنان) تضاف إلى جهود حافلة، نطق بها كتابه الثمين"[١].

اعتراض ابن الأثير علي ابن سنان

وقد اعترض العلامة (ابن الأثير) على هذا الشرط، واستدل على أن الطول لا يوجب قبح اللفظة بما ورد فى القرآن الكريم، كقوله تعالى (فسيكفيكهم الله)[٢]، ورأى (ابن الأثير) أن الأولى أن نقول: "أن تكون الألفاظ مؤلفة من حروف يسهل النطق بها"[٣].

وقد مثّل الخفاجي في (سر الفصاحة) بقول أبي الطيب المتنبي[٤]:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

يقول الخفاجي: فـ(سويداواتها) كلمة طويلة جدا فلذلك لا أختارها[٥].

---

[١] تطور البحث البلاغى، لأستاذنا الدكتور/ محمد أحمد البيومى، ص٣٧، ٣٨.

[٢] سورة البقرة: ٣٧.

[٣] المثل السائر: ٤/ ١٧٧.

[٤] ديوان المتنبي: ١/ ٢٣٠

[٥] سر الفصاحة: ص١١٨.

وقد اعترض (ابن الأثير) على (الخفاجي) في اختياره طول الكلمة عيبًا واستشهاده ببيت المتنبي السابق، وعبارته هي:

"إننا لو أسقطنا من (سويداواتها) الهاء والألف، وهما عوض عن الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف، ومع هذا فإنها قبيحة، ولفظة (ليستخلفنهم) عشرة أحرف، وهى أطول منها بحرفين، ومع هذا فإنها حسنة رائعة، ويرى أن ذلك يرجع إلى تأليف الحروف بعضها مع بعض"[١]. وموقف (ابن الأثير) هنا يتناقض مع موقفه في كتابه الموسوم بـ(الجامع الكبير)؛ حيث أيد كلام (الخفاجى)، وعلل طول الألفاظ القرآنية بأنها أكثر من كلمة جمعت فصارت في كلمة واحدة، وأنه لا توجد في القرآن لفظة واحدة مثل(سويداواتها)[٢].

ولعل كلام (ابن الأثير) في الجامع الكبير) هو الأقرب إلى الصواب.

اعتراض ابن أبي الحديد على ابن الأثير :

وقد ردّ العلامة (ابن أبى الحديد) كلام (ابن الأثير)، وعبارته في ذلك هي: "ألست قلت في باب المعاظلة إنهما مما وقع الإجماع على قبحه، وقلت إنها لتكرير الحروف، ومثلت لها بقول القائل:

(وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر)؟!

---

[١] المثل السائر: ١/ ٢٠٤.

[٢] ينظر: الجامع الكبير لابن الأثير، ص ٥٧، ٥٨.

فلقائل أن يقول لك: قد ورد في القرآن الكريم مثل ذلك وهو قوله تعالى:(بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)[١].

فهذه ميمات كثيرة يتلو بعضها بعضا، فإما أن يكون استعمالها في القرآن غير مستحسن، أو يكون مستحسنا، فإن لم يكن مستحسنا مع أنها قد استعملت، فاختر لابن سنان أن تكون الكلمة الطويلة كقوله: "ليستخلفنهم" غير مستحسنة، وقد استعملت، وإن كانت المعاظلة قبيحة إلا في القرآن الكريم، فاختر لـ(ابن سنان) أن يكون كثرة حروف الكلمة حروف الكلمة قبيحة إلا في القرآن الكريم"[٢].

ويرى الباحث أن هناك فرقًا شاسعًا بين نظم الآية القرآنية مع كثرة حروفها وميماتها، وبين ثقل ألفاظ قول الشاعر السابق.

الرأي الذي أرتضيه :

ولعل أستاذنا العلامة الدكتور (محمد شادي) قد أجاب عن (ابن الأثير) و(الخفاجي)، وعبارته هي: "إن الحكم على الكلمة بالفصاحة أو بعدمها إنما يكون عند استعمالها، فإذا انسجمت في تركيبها، وتمكنت في موقعها وأدت دورها المنوط بها؛ كانت فصيحة وإن طالت وكثرت حروفها، والذوق السليم هو المرجع في الحكم على الكلمة بالفصاحة على كل حال"[٣].

---

[١] سورة هود: ٤٨ {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا}.

[٢] المثل السائر: ٤/ ١٧٧، ١٧٨.

[٣] نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، لأستاذي الدكتور/ محمد شادي، ص٩٢.

ولعل ما قاله أستاذنا العلامة هو الأجدر بالقبول، وإن كان العلامة (الخفاجي) في (سر الفصاحة) لم ينكر ذلك، لكنه فقط ذكر أنه إن بحثت عن سبب وراء عدم فصاحة بعض الكلمات مثل: (سويداواتها) في قول المتنبي السابق، فسيكون هو طولها، وعدم اقتضاء المقام والسياق لهذا الطول، بخلاف بعض الكلمات التي يعتقد البعض أنها طويلة في القرآن الكريم _كما قال (ابن الأثير)، فإما أن تكون أكثر من كلمة جمعت في كلمة واحدة _كما أشار (ابن الأثير) نفسه في كتابه الآخر (الجامع الكبير)،وإما أن يكون ذلك هو اقتضاء المقام والسياق لها.

ومن الشروط التي اعترض عليها بعض البلاغيين قول (الخفاجي): "أن يكون لتأليف الكلمة في السمع حسن ومزية[1].

وقد مثّل (الخفاجي) لهذا الشرط في كتابه (سر الفصاحة)، حيث يقول: "والثاني: أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه، ومثاله في الحروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لقولهم العذيب اسم موضع، وعذيبة اسم امرأة، وعذب وعذاب وعذب وعذبات ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذلك بُعد الحروف في المخارج فقط، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال

[1] سر الفصاحة، ص٦٥.

لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أوفنناً أحسن من تسميته عسلوجاً، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط"[١].

وليس هذا هو الموضع الوحيد الذي تحدث فيه (الخفاجي) عن أهمية السمع في اختيار الكلام، حيث يقول في موضع آخر: "فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء:

الأول: أن يكون تأليف تلك الفظة من حروف متباعدة المخارج على ما ذكرناه في الفصل الرابع. وعلة هذا واضحة وهي أن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود"[٢].

ويقول (الخفاجي) على أحد أبيات أبي الطيب المتنبي، و"مثال ما يكره قول أبي الطيب _أيضًا_:

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجرشي شريف النسب

فإنك تجد في (الجرشي) تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه"[٣].

---

[١] السابق.

[٢] سر الفصاحة، ص٦٥. دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٢م، بيروت.

[٣] السابق، ص٦٦.

وقد اعترض بعض البلاغيين _ومنهم القزويني_ على شرط (الكراهة في السمع) الذي اشترطه (الخفاجي) لصحة الكلمة.

يقول (القزويني) في كتابه (الإيضاح): "وفي بيت المتنبي نظر"[١].

وقد فسر بعض الشراح وجه النظر في كلام (القزويني) السابق أن الكراهة في السمع إنما هي من جهة الغرابة المفسرة بالوحشية، مثل (تكأكأتم، وافرنقعوا، ونحو ذلك)، وأن الكراهة في السمع وعدمها يرجعان إلى عدم طيب النغم أو إلى طيبه، لا إلى نفس اللفظ.

وقال بعضهم: إنه يمكن رد الوجه الثاني بالقطع باستكراه (الجرشي) دون النفس، مع قطع النظر عن النغم[٢].

وقد أيّد (ابن الأثير) كلام (الخفاجي)، لكنه كعادته حين يسطو على كلام صاحب (سر الفصاحة)، وينسبه لنفسه، لا يشير إليه من قريب أو بعيد.

وإذا كنتَ غير مصدق ذلك، فأنت تعلم أن صاحب (المثل السائر) توفي (٦٣٧هـ)، وأن العلامة (ابن سنان الخفاجي) توفي (٤٦٦هـ)، ومع ذلك اسمع إلى (ابن الأثير) حين يزعم أن شرط الكراهة في السمع هو من إبداعاته التي

---

[١] الإيضاح للقزويني، شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي: ١/ ٢٧.

[٢] ينظر تفصيل ذلك في: حاشية الشيخ يسن على مختصر المعاني، ص١٦، وحاشية مغربية على مختصر المعاني، ص١٧، وحاشية ابن قدقي، ص١٨، وحاشية خواجة أبو القاسم على المطول، ص١٨، وحاشية داود أفندي على مختصر المعاني، ص١٦، وحاشية سليمان أفندي على مختصر المعاني، ص١٦، وحاشية ميرزاجان على مختصر المعاني، ص١٦، ومفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي، ص٤٢، تح: أ.د/ هاشم محمد هاشم، وحاشية تجلي الأفراح شرح تلخيص المفتاح للزركشي الحلبي، لوحة رقم ١٢، تحت رقم (٢٢٢٢).

انفرد بها، حيث يقول: "فإن قيل: من أيِّ وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا أن القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه؟

قلت في الجواب: إنَّ هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها؛ لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح.

ألا ترى أن السمع يستلذّ صوت البلبل من الطير، وصوت الشحرور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب، وينفر عنه،...فإنه لا خلاف في أن لفظة "المزنة" و"الديمة" حسنةٌ يستلذها السمع، وأن لفظة "البعاق" قبيحة يكرهها السمع،...وإذا ثبت أنَّ الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيِّن، وإنما كان ظاهرًا بينًا لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع"[١].

ويقول في موضع ثان: "فحسن الألفاظ إذن ليس معلومًا من تباعد المخارج، وإنما عُلِمَ قبل العلم بتباعدها، وكل هذا راجع إلى حاسَّة السمع"[٢].

ويقول عند حديثه عن الألفاظ المركبة: "فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها، وهي مع ذلك حسنة لا ثقل بها، ولا ينبو السمع عنها؟"[٣].

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير: ١/ ٨٠.

[٢] السابق: ١/ ١٥٩.

[٣] السابق: ١/ ١٩٤.

فالعلامة (ابن الأثير) اعتمد (السمع) مقياسًا في كل ما يعنّ له من قضايا، ونحن لن نناقشه في ذلك، لكن فقط كان عليه أن يذكر أن من أوحى له بذلك هو العلامة (ابن سنان الخفاجي)، فبدلاً من التباهي بانفراده بهذا المقياس، بل واتهامه غيره بالتقصير في الحديث عن ذلك، وعدم الإشارة إليه، وأنه وحده من أشار إلى ذلك، بل وتوصّل إليه، كان عليه النص على جهد (الخفاجي) الواضح في ذلك.

على أن (ابن الأثير) قد خانه التوفيق في هذا السطو، فقد عوّدنا على ذكائه في مثل هذه المواضع، فقد نسي أو تناسى أن الحديث عن الفصاحة وتفصيل شروطها، وتقسيمها مما تميز به (الخفاجي)، وأن هذا الباب من الأبواب التي نسبت له.

ومن الأمور التي أخذها بعض البلاغيين على (ابن سنان الخفاجي) (إنكاره للإطناب).

فقد زعم الأستاذ/كامل الفقي أن (ابن سنان) ينكر الإطناب، حيث يقول سيادته: "كان من الغريب أن ينكر (ابن سنان) على الفصحاء أن يجعلوا الإطناب من الفصاحة، ويناقش الذين أفسحوا الفصاحة لهذا النوع، ويصر على إخلاله بها... ثم ينقل سيادته كلام (ابن سنان) عن الإيجاز، الذي يقول فيه: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس حتى إنهم إنما يستحسنون من كتاب الله تعالى ما كان بهذه الصفة ومن الناس من يقول: إن من الكلام

ما يحسن فيه الاختصار والإيجاز كأكثر المكاتبات والمخاطبات... ومنه ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة كالخطب والكتب التي يحتاج أن يفهمها عوام الناس وأصحاب الأذهان البعيدة...، والذي عندي في هذا الباب أنهم إن كانوا يريدون بالإطالة تكرر المعاني والألفاظ الدالة عليها وخروجها في معاريض مختلفة ووجوه متباينة - وإن كان الغرض الأصل واحدًا..." [١].

لقد نقل الأستاذ الفقي كلام الخفاجي كاملاً، ثم عقب عليه بقوله: "لا نكون مبالغين إذا قلنا إنه أخطأه التوفيق"[٢].

ويبدو أن الذي أخطأه التوفيق إنما هو الأستاذ كامل الفقي؛ لأنه _على ما يبدو_ لم يقرأ نص كلام (الخفاجي) كاملاً في (سر الفصاحة)؛ لأن (ابن سنان) لم يرفض الإطناب، بل استحسنه، وكيف يرفضه، وهو القائل: " وكان أبو الحسن علي بن عيسى الرماني... يسمى العبارة عن المعنى بالكلام الكثير، مع أن القليل يكفى فيه: التطويل، ويسمى العبارة عن المعنى بالكلام الكثير الذي يستفاد منه إيضاح ذلك المعنى وتفصيله: الإطناب، ويجعل التطويل عيباً وعياً والإطناب حسناً ومحموداً.

وهذا المذهب من أبي الحسن موافق لما اخترناه؛ لأنه يذهب إلى حسن الإطناب، الذي هو عنده طول الكلام في فائدة وبيان، وإخراج للمعنى في

---

[١] سر الفصاحة، ص٣٠٧.

[٢] مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ص٤٥٣، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠.

معاريض مختلفة، وتفصيل له، ليتحققه السامع، ويستقر عنده فهمه، وهذا هو الذي اخترناه"[١].

ألا تكفي عبارة (وهذا هو الذي اخترناه) حتى يزعم الأستاذ الفقي أنه أنكر وجود الإطناب.

إن (ابن سنان) في كل سطر من سطور كتابه يعترف بالإطناب، ولكنه يشترط لحسنه أن يكون طول الكلام لفائدة، والوضوح والبيان، وأن يخرج المعنى في معاريض مختلفة، وتفصيل له؛ ليتحققه السامع، ويستقر عنده فهمه.

أبعد ذلك يحق لأحد أن يدّعي رفض (ابن سنان) للإطناب، ثم إن (ابن سنان) في حديثه واختياره لا يبحث عن الجائز والممتنع حتى يرفض الإطناب أو يقبله، ولكنه يبحث عن الفصيح والأفصح.

واسمع إليه حين يقول: "إذا قلنا من شروط الفصاحة الإيجاز لم يكن ذلك منعاً لجواز الإسهاب ولا رفضاً لاستعماله وإنما مقصودنا أن هذا النحو أحسن من هذا النحو وبهذا الوجه يستدل على الفصاحة أكثر من هذا الوجه...؛ لأنا لا نتكلم في هذا الموضع على الجائز والممتنع وإنما كلامنا على الأفصح والأحسن"[٢].

على أنه يجب التنبيه على أن المقام والسياق هو الحاكم في ذلك، واختيار الإيجاز أو الإطناب يتوقف على ذلك، وإن تساويا في الفائدة _وهذا ما لا يمكن_ فالإيجاز هو الأحسن.

---

[١] سر الفصاحة، ص٢١١.

[٢] سر الفصاحة، ص٢٢٣.

الخاتمة

وبعد ..

فهذه جملة من الاتهامات التي اتهم بها العلامة ابن سنان الخفاجي - وهي كثيرة – راعيت فيها الإيجاز – قدر المستطاع ، وحاولت عرضها على مائدة البحث البلاغي .

على أني لم أذكر كل ما اتهم به ابن سنان – بدون وجه حق – مراعاة للحال والمقام وعدد الصفحات التي يمكن أن يسمح لمثلي أن يكتبها .

كما أني راعيت قدر من حاول تعرية الخفاجي ومحاولة تجريده من كل فضيلة ،ولا أقول هنا إلا ما قاله ابن سنان – نفسه – في كتابه (سر الفصاحة) : فإني لست أدعي السلامة من الخلل ولا العصمة من الزلل، وأعترف بالتقصير وأسأل من ينظر في عملي هذا بسط عذري ، والصفح عمال لعله يثيره علي.

ولا أزعم الكمال والعصمة ، فالكمال لله وحده ، والعصمة لرسوله –صلى الله عليه وسلم .

وما توفيقي إلا بالله ،عليه توكلت وإليه أنيب

دكتور / عبد المنعم السيد رزق

الأستاذ المساعد ورئيس قسم البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

المصادر والمراجع

-أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: الكتب المطبوعة.

١_ابن سنان وسر الفصاحة، الأستاذ/كامل الفقي، مجلة الأزهر، ١٣٦٢هـ، صفر، مجلد (٤).

٢_أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر، تح: د/محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، لصاحبها علي يوسف سليمان، ط٣، ١٩٧٩م.

٣_أعلام العرب _عبد القاهر الجرجاني_ تأليف/ أحمد أحمد بدوي.

٤_الإكسير في علم التفسير، للطوفي البغدادي، تح: عبد القادر حسين.

٥_الإيضاح في علوم البلاغة، شرح د/محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت.

٦_البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، أ.د/ محمد شادي.

٧_البلاغة بين عبد القاهر وابن سنان.

٨_البلاغة تطور وتاريخ، د/شوقي ضيف.

٩_بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي.

١٠_البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، د/بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٧، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.

١١_تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان.

١٢_تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان.

١٣_تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د/إحسان عباس، دار الشروق، ط٢.

١٤_تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها

١٥_التصوير البياني، د/حفني شرف.

١٦_تطور البحث البلاغي، د/محمد رجب البيومي.

١٧_تلخيص المفتاح للقزويني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية.

١٨_الجامع الكبير لابن الأثير.

١٩_خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٣.

٢٠_الخفاجيون في التاريخ، د/خفاجي.

٢١_ديوان ابن سنان الخفاجي، دار الكتب بالقاهرة، ١٩٨٢م.

٢٢_ديوان أبي تمام.

٢٣_ديوان البحتري

٢٤_ديوان المتنبي.

٢٥_ديوان عمر بن معدي كَرِب

٢٦_سر الفصاحة، تح: د/النبوي عبد الواحد شعلان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٢م، بيروت.

٢٧_سر الفصاحة، دراسة وتحليل، د/عبد الرازق أبو زيد

٢٨_شرح مختصر المعاني للتفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني.

٢٩_الصبغ البديعي في اللغة العربية، د/أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م.
٣٠_الطراز.
٣١_عروس الأفراح للسبكي، ضمن شروح التلخيص.
٣٢_علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي.
٣٣_فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د/رجاء عيد
٣٤_فوات الأعيان لابن شاكر الكتبي
٣٥_في البلاغة العربية، د/رجاء عيد
٣٦_قدماء ومعاصرون، د/ سامي الدهان
٣٧_كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.
٣٨_المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت: ٦٣٧هـ)، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.
٣٩_مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د/محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.
٤٠_معاهد التنصيص.
٤١_معجم البلدان (حلب).
٤٢_مفتاح تلخيص المفتاح للخلخالي، تح: أ.د/ هاشم محمد هاشم.
٤٣_مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د/ الشحات أبو ستيت.
٤٤_من سمات التراكيب، د/عبد الستار زموط

٤٥_مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية، د/عبد السلام عبد الحفيظ، ص٢٤٤.

٤٦_مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، المؤلفات الموضوعة، دار الجيل.

٤٧_النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى الأتابكي

٤٨_نشأة البلاغة وأصول علم المعاني، الأستاذ الدكتور/محمد شادي، ط٢، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

ثالثًا: المخطوطات.

١_حاشية ابن قدقي، مخطوط تحت رقم ٢٣٦٧٥.

٢_حاشية آت بازاري على مختصر المعاني، مخطوط تحت رقم ٥٥ بلاغة، ٢٠/ ١٧٨٦ بلاغة.

٣_حاشية الشيخ يسن على مختصر المعاني، مخطوط تحت رقم ٩٨٠٥.

٤_حاشية تجلي الأفراح شرح تلخيص المفتاح للزركشي الحلبي، مخطوط تحت رقم ٨٩٠٦.

٥_حاشية خواجة أبو القاسم على المطول، مخطوط.

٦_حاشية داود أفندي على مختصر المعاني، مخطوط.

٧_حاشية سليمان أفندي على مختصر المعاني، مخطوط.

٨_حاشية مغربية على مختصر المعاني، مخطوط.

٩_حاشية ميرزاجان على مختصر المعاني، مخطوط.

١٠_حاشية يسن على مختصر المعاني.

رابعًا: الرسائل العلمية:

١_ ابن سنان الخفاجي وأثره في النقد والبلاغة، د/ عبد الحميد محمد حسن العبيسي، ١٩٧١م، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة.

٢_ البحث البلاغي والنقدي بين ابن الخطيب الرازي وابن حمزة العلوي، عرض وتحليل_موازنة_نقد، دكتوراه، الباحث/ محمد حسين إبراهيم الهايج، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة، رقم (١٤٨٢).

٣_ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دراسة وتحليل، عبد الرازق أبو زيد بدوي، ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب.

٤_ قضايا الحداثة في كتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي، دراسة أسلوبية تقابلية، عائشة لطيف محمود عامر، ماجستير، ١٩٩٤م، جامعة عين شمس، كلية الآداب.

٥_ المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، الباحث/ عبد المنعم السيد الشحات، ماجستير، جامعة الزهر، كلية اللغة العربية بالمنصورة.

خامسًا: الدويات العلمية والمجلات.

١_ مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ١٣٦٢هـ، صفر، مجلد (٤)

٢_ مجلة الأزهر، الأستاذ/كامل الفقي، ١٣٦٤هـ، شوال، مج١٦، ج١٠.